الطاهر عمارة الأدغم

ذِكريَات ومَواقِف من بِلَاد العَجَم

الطَّريق إلى كَابل

الجزائِر الذي تنكَّر لأصله

أول صحَفية جزائرية في كابل

شَاي الطَّوارِق في قندهَار

البَاشائي أحفاد الإغريق

الإبرَاهيمي الذي أحبَّه الأفغان

دار الخلدونية

الطّاهر عمارة الأدغم

ذكريات ومواقف
من
بلاد العَجَم

دار الخلدونية

الكتاب : ذكريات ومواقف من بلاد العجم
إعداد : الطّاهر عمارة الأدغم
قياس الصفحة: 24/16
عدد الصّفحات: 156ص
الإيداع القانوني: 3310 -2007
ردمك : 978-9961-52-207-6

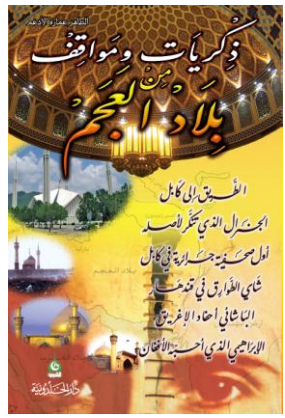

حُقوق الطّبع محفُوظة

الطبـعة الأولـى

1428هـ - 2007م

دار الخلدونية للنّشر والتّوزيع

05، شارع محمد مسعودي
القبّة القديمة - الجزائر
هـ : 021.68.86.49
هـ/ف : 021.68.86.48

البريد الإلكتروني :
khaldou99_ ed@yahoo.fr

دار الخلدونية

دار الخلدونية

تقديم

✍ **بقلم الأستاذ الفاضل**
محمّد الهادي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم

والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد النّبيّ الكريم، وعلى آله الطّاهرين وصحبه الميامين.

إنّ كتابة مقدّمة لأيّ كتاب ينبغي أن تكون مبنيّة على معرفة بصاحبه وإطّلاع على محتواه.

فأمّا الكتاب فقد قرأتُ جُلّه على صفحات جريدة "الشّروق اليوميّ"، حيث نُشر فيها على حلقات. وأمّا صاحبه فلم ألتق به إلا منذ فترة قصيرة، وقد كنتُ قبل لقائه أظنّه تونسيا، رابطا في ذلك الظنّ بين لقبه ولقب السّياسيّ التّونسي المعروف لدى جيلي، وهو الباهي الأدغم، وأجبتُ عن تساؤلي عن كتابته في جريدة جزائرية بأنه قد يكون أحد معارضي النّظام التّونسيّ، أو أنّ الجريدة الجزائريّة افترصت فرصة وجوده في أفغانستان وباكستان وإيران فاتفقت معه على تزويده لها بمقالات عن أوضاع تلك البلدان وما يجري على سُوحِهَا من حوادث.

وذات يوم تقدّم مني شابّ يبدو على محياه الهدوء، وترتسم على شفتيه ابتسامة لطيفة، فسلّم عليّ بمودّة، وحيّاني بكلمات حِسَانٍ، وقال في صوت خفيض: أنا الطّاهر الأدغم، فرددت التحية، وكان كِلاَنَا في عجلة من أمره فلم يتجاوز الأمر تلك التّحية والردّ عليها.

وبالرغم من تعدّد اللّقاءات بعد ذلك فإنّها اقتصرت على تبادل التّحيات والسّؤال عن الصّحة والأحوال إلى أن أبدى لي رغبته في أن أكتب له كلمة يضمّها إلى كتابه الذي سمّاه "ذكريات ومواقف من بلاد العجم"، فلم أجد بُدًّا من إجابة دعوته الكريمة، شاكرا له حسن ظنّه في شخصي، وثقته بي.

إنّ كلمة "العجم" في أدبياتنا العربية تطلق على كلّ من ليس عربيا، والمقصود بها في هذا الكتاب ثلاث دول يفرّقنا عنها المكان واللّسان، ويجمعنا بها الإسلام والإيمان، وهذه الدّول هي باكستان وأفغانستان وإيران، وقد قضى الأستاذ الطّاهر الأدغم في هذه الدّول فترة من حياته، حيث عمل مراسلا لبعض القنوات الفضائيّة (النّيل، تونس 7، الجزيرة) وموظّفا في قناة "العالم" في إيران.

إنّ مهمّة المراسل مهمّة ممتعة لما تمنحه لصاحبها من أسفار يتعرّف من خلالها على كثير من الأمصار، ولما تتيحه له من اتصال مباشر بمختلف الشّعوب، ولقاءات مع قياداتها السّياسية، ونُخَبِها الثّقافية، ولكلّ وجهة هو مولّيها، وأفكار يؤمن بها، ويدعو إليها، ويجادل عنها باللّسان أو بالسّنان، وكلّ ذلك يزيد المراسل خبرة وتجربة تثريان شخصيته، وتوسّعان أفقه.

وهي مهمّة خطرة، لأنّها قد توقع صاحبها في مآزق، وتضعه في محارج، وقد تؤدّي به إلى التّهلكة، خاصة في المناطق السّاخنة التّي تعرف توتّرات، وتعاني داء الخلافات، وتعيش مشكلات، ويكون فيها صوت الرّصاص والانفجارات هو الأطغى. وكم من مراسل ذهب ضحيّة تلك النّزاعات.

إضافة إلى ما يتناوله هذا الكتاب من حديث عن سياسيين وعسكريين؛ فهو يتناول وصفا للمناطق التي زارها الكاتب، وما لقيه في زياراته من لُغُوب ونصب، ووصفا لعادات سكّان تلك المناطق وتقاليدهم الحسناء والشّيناء.

يمكن إدراج هذا الكتاب فيما يسمّى "أدب الرّحلة" الذّي برع فيه أسلافنا كابن بطوطة، والبكري، وابن جبير، والعياشي، ويمكن القول إن الأستاذ الطّاهر الأدغم قد أحيا هذا الضّرب من الأدب في الجزائر التّي كان لأبنائها فيه نصيب، ففي العهد العثمانيّ هناك رحلات الحسين الورتلاني، وعبد الرّزاق بن حمادوش، وأحمد بن عمّار، وفي العهد المعاصر هناك رحلات محمّد الصّالح رمضان، ومحمّد الغسيري، وباعزيز بن عمر، ومن قبلهم رحلة الإمام محمد البشير الإبراهيميّ إلى باكستان التّي نشرت حلقات منها في السّلسلة الثّانية من جريدة البصائر.

إنّ أدب الرّحلة أدب حيٌّ ممتع، فهو يشدّ القارئ شدا لا فكاك منه، لأنّه يطلع القارئ على غرائب وعجائب، ويطلعه على أماكن قد لا يمكنه زيارتها، ويعرّفه بأشخاص قد لا تسمح له الظّروف بلقياهم، ويزيد هذا الأدب حيوية ومتعه شخصية الكاتب، فكلّما كان أمينا في التّعبير، قادرا على التّصوير كان أفْيَد للقارئ وأمْلَكَ له.

إنّ مَثَل أدب الرّحلة كمثل المائدة الملآى بأنواع المآكل والمشارب، ففيه وصف للطّبيعة والعمران، وتعريف بالأشخاص، واستعراض للأفكار، وتصوير للعادات، واستحضار للتّاريخ واستصحاب

له. وكم من معلومات مفيدة لم نجدها مسطورة في كتب التّاريخ، ولكنّنا وجدناها في كتب الرّحلات.

إنّ الكتابة في هذا الميدان تتطلّب من صاحبها تحكّما في اللّغة، وقدرة على تطويعها، وحسن استعمالها، وهي تحتاج إلى مصطلحات من شتّى الميادين المعرفية، كالجغرافيا، والدّين، والاجتماع، والسّياسة، وليس كلّ من أمسك قلما وُفِّق في ذلك.

لقد استمتعتُ بقراءة هذا الكتاب، واستفدتُ ممّا جاء فيه من المعلومات، ومنها سبب تسمية مدينة "مزار شريف" في أفغانستان، حيث يزعم النّاس أنّ جثمان الإمام، علي كرّم الله وجهه، قد هُرّب من العراق إلى هناك، الأمر الذّي يذكّرنا بزَعْم مثله في الجزائر عن الشّيخ محمد بن عبد الرحمن القشطوليّ، الأزهريّ، المُسمّى "سيدي محمد بُوقَبْرين" حيث يعتقد بعض الجزائريين أنّ له قبرين أحدهما في موطنه "قشطولة" في منطقة زواوة، وثانيهما في منطقة الحامّة بمدينة الجزائر.

وقد زاد من متعتي لغة الأستاذ الطّاهر الأدغم، فهي لغة حيّة، مشرقة، سهلة، ليس فيها تقعّر، بحيث لا ينفر منها المثقّف، ولا يستصعبها القارئ العاديّ. وأرجو أن يجد فيه القارئ ما وجدته فيه من فائدة ومتعة.

ودعاء خالص للأستاذ الفاضل بمزيد من النّجاح والتّوفيق.

محمّد الهادي الحسنيّ

مدينة البُلَيْدة / الجزائر

جمادي الثّانية 1428 هـ / 15 جويلية 2007 م

الإهداء

إلى روح والدي العزيز، رحمه الله، الذّي لم يدّخر جهدا في تعليمي رغم إمكانيات الفلاّح المحدودة..

وإلى روح والدتي العزيزة، رحمها الله، التّي كثيرا ما كانت تدعو لي بأن "يرزقني الله من صدري" وهي ترى محدودية بلائي، وأنا إلى جانب والدي وإخوتي في المزرعة..

ثم....

إلى كلّ الذّين جمعتني بهم وشائج صداقة أو زمالة خلال سنوات غربتي.. في كلّ الدّيار والأمصار...

وأينما حلّوا وارتحلوا ودارت بهم الأيّام والسّنون.

مقدّمة

النّواة الأولى لهذا الكتاب كانت سلسلة مقالات، حرصت على أن تكون "خفيفة"، نشرتُها في جريدة "الشّروق اليوميّ" خلال شهر رمضان المبارك عام 1426هـ / أكتوبر 2005، وحملتْ تلك السّلسة عنوانا عامّا هو "ذكريات ومواقف من بلاد العَجَم".

ولمّا تجاوب القرّاءُ مع تلك السّلسلة وامتدحها الكثير منهم، فضلا عن الزّملاء والأصدقاء، حرصتُ على كتابتها من جديد بشكل أوسع، حيث تداركتُ الكثيرَ من المواقف والذّكريات، وتعمّقتُ شيئا ما في عدد من القضايا، وأسهبتُ في إلقاء الضّوء على مجموعة من الإشكاليّات، واستطردتُ في شرح عادات وسلوكيات في الدّول الثّلاث مسرح هذه الذّكريات والمواقف.

وطبيعيّ أن يزيد حجم المّادة المكتوبة، فوصل إلى ثلاثة أضعاف الأولى وهو ما دعاني إلى التّفكير في نشرها على صفحات جريدة أسبوعيّة حتّى يتسنّى للقارئ متابعتها وجمعها بسهولة، وهكذا ظهرت "الذّكريات والمواقف" من جديد في جريدة "الحقائق" الأسبوعيّة بدءا من العدد الرّابع الصادر في الثّلاثين من أكتوبر 2006.

وهاهي حلقات "الحقائق" تخرج في هذا الكتاب الذّي أتمنّى أن ينال إعجاب القرّاء الكرام، وأن يسهم في إلقاء الضوء على مرحلة زمنيّة وقضايا

حسّاسة بمنطقة "ساخنة" ومثيرة للجدل، ساهمت، وما زالت تساهم، في التّأثير على مجريات الأحداث العالمية.

وقد يجد القارئُ بعضَ الأحكام أو الآراء حول قضايا معينّة أو شخصيات محدّدة، وقد يبدو له ذلك من قبيل الانطباعات الشّخصية.. والحقيقة أن أغلب ما ورد في هذا السّياق يستند إلى روايات وتحليلات خبراء وأصحاب رأي ومسؤولين قابلتُهم واستمعتُ إليهم، لكنّني أسلّم أولا وأخيرا بأنّ أكثر ما ورد من أحكام وآراء قد يحمل وجهات نظر متعدّدة، ويحتمل أكثر من قراءة عبر أكثر من زاوية.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السّبيل...

الطّاهر عمارة الأدغم

الجزائر العاصمة

05 شعبان 1428 هـ / 18 أوت 2007 م

معلومات أساسيّة

أوّلا: باكستان

الموقع: تقع جمهورية باكستان الإسلاميّة في جنوب آسيا، يحدّها من الجنوب بحر العرب، ومن الغرب أفغانستان وإيران ومن الشّرق الهند ومن الشّمال الصّين وأفغانستان.

المساحة: 803.940 كلم^2 / **عدد السكان:** 150 مليون نسمة.

الدّيانة الرّسمية: الإسلام، ويمثل المسلمون 97 % من عدد السّكان، وتتوزّع نسبة الـ 3 % الباقية بين المسيحيّين والهندوس وديانات أخرى محدودة العدد.

اللّغة: الأرديّة هي اللغّة القوميّة، والإنجليزية هي الرّسمية، وهناك عدد من اللّغات المحليّة أبرزها: **البَشْتُو، البَلُوشِي، السِّنْدِي، البَنْجَابِي، الكَشْمِيريّ.**

الأعراق: البَنْجَابِيُّون والبَشْتُون، والسُّنُود، والبَلُوش، والكَشْمِيريّون، وعرقيّات أخرى محدودة العدد.

العملة: الرّوبية الباكستانية / **نظام الحكم:** جمهوري فيدرالي.

العاصمة السّياسية (إسلام آباد)، وأشهر مدن البلاد: (كَرَاْتِشي) العاصمة الاقتصادية، ولاَهُور العاصمة الثقافية، و (رَاوِلْبِنْدِي)، و (بِيشَاوَر)، و(كْوِيتَا)، و (مُلْتَان)، و (فيصل آباد) و (بَهَاوِلْبُور)...

التّركيبة الإداريّة: تتكوّن باكستان من أربعة أقاليم هي: إقليم الحدود الشّمالية الغربية وعاصمته بيشاور، وإقليم البنجاب وعاصمته لاهور، وإقليم بلوشستان وعاصمته كويتا، وإقليم السند وعاصمته كراتشي، بالإضافة إلى ثلاث مناطق تخضع لإدارة الحكومة الفيدرالية وهي: منطقة العاصمة الفيدرالية إسلام آباد

والمناطق القبليّة، والمناطق الشّمالية، وهناك إقليم خامس يخضع عمليّا لسيادة باكستان منذ تقسيم شبه القارّة الهندية إلى دولتين عام 1947، ورسميّا يُعتبر شبه مستقل ويُسَمّى (آزاد كَشْمِير)، أي كشمير الحرّة، وهو الجزء الذّي تسيطر عليه باكستان من إقليم (جَامُو وكشمير) المتنازع عليه بين الهند وباكستان.

ثانيا : أفغانستان

الموقع: تقع أفغانستان في قلب آسيا الوسطى، وهي دولة قاريّة حبيسة (أي بلا منافذ بحريّة). تحدّها من الشّرق والجنوب باكستان، ومن الشّمال طاجيكستان وأوزباكستان وتركمانستان، ومن الغرب إيران، وتشترك مع الصّين في حدود قصيرة طولها 71 كيلومترا من الجهة الشّمالية الشّرقية.

المساحة: 652.225 كلم^2 / **عدد السكان**: 29 مليون نسمة.

الدّيانة الرّسميّة: الإسلام حيث يشكّل أكثر من 99 % من عدد السّكان فيما يوجد عدد قليل من السّيخ والهندوس وغيرهم.

اللّغة الرّسمية: البَشْتُو والدَّارِي (الفارسي) وهما اللّغتان الرّسميّتان، وتوجد في البلاد قرابة عشرين لغة أخرى بينها الأوزبكية والبَاشَائِي، والبَلُوشِي..

الأعراق: يوجد في أفغانستان ما يقارب عشرين مجموعة عرقيّة لكنّ أبرزها البُشْتُون والطّاجيك ثمّ يليهما الأوزبك والفَارْسِيوَان، والهَازَارَا، والبَاشَائِي، والبَلُوش، وتتداخل أغلبُ هذه العرقيّات مع أعراق الدّول المجاورة.

العملة: الرّوبية الأفغانية / **نظام الحكم:** جمهوريّ مركزيّ.

العاصمة كابل، وأهمّ المدن: جلال آباد، وهِرَات، وقَنْدَهَار، ومَزَار شريف، وقُنْدُز.

التّركيبة الإداريّة: تتكّون أفغانستان من 32 ولاية.

ثالثا: إيران

الموقع: تقع إيران في جنوب غرب آسيا، تحدّها شمالا كلّ من تركمانستان وبحر قزوين، وأذربيجان وأرمينيا، وغربا تركيا والعراق، وجنوبا الخليج العربيّ، وبحر عمان، وشرقا باكستان وأفغانستان.

المساحة: 1.648.000 كلم^2

السكان: 70 مليون نسمة.

الدّيانة الرّسمية: الإسلام حيث يعتنقه 98 % من السكان، والـ 2 % الباقية زَرَادَشْتِيَّة ويهود ومسيحيون.

اللّغة الرّسمية: الفارسيّة هي اللّغة الرّسمية، وهناك لغات أخرى منها الكرديّة، والبلوشية، والتركية، ويتحدّث سكّان منطقة الأهواز المحاذية للعراق اللّغة العربية التّي تلقى أيضا اهتماما رسميّا من خلال تدريسها في مختلف المراحل التّعليميّة.

الأعراق: الفرس، والبَلوُش، والأكراد، والتّرك، والعرب وأقليّات أخرى محدودة العدد.

العملة: الرّيال الإيرانيّ / **نظام الحكم:** جمهوريّ إسلاميّ مركزيّ.

العاصمة طهران، وأهمّ المدن: أصفهان، تبريز، مشهد، قُم.

التّركيبة الإدارية: تتألف إيران من 30 محافظة.

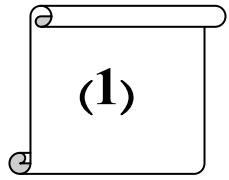

الدّول الثّلاث: عادات وعبادات

عدد من سنوات عمري قضيتُها في ثلاث دول آسيوية مسلمة هي باكستان وأفغانستان وإيران. اشتغلتُ في الدّول الثلاث بالصّحافة فقد كنتُ مراسلا لقناة النّيل للأخبار ثمّ قناة تونس سبعة من العاصمة الباكستانية إسلام آباد، ثمّ مراسلا ومديرا لمكتب الجزيرة في أفغانستان، وأخيرا محرّرا بغرفة أخبار قناة العالم الفضائية في العاصمة الإيرانيّة طهران.

البلدان الثّلاثة تختلف عنّا نحن العرب في كثير من العادات والتّقاليد، لكنّنا نلتقي في أشياء أخرى، ففي النّهاية تجمعنا ديانة واحدة، وعالم ثالث واحد بكل ما تحمل كلمة عالم ثالث من معانٍ وأبعاد.

كلّ دولة من الدول الثّلاث آنفة الذّكر تضمّ بين جنباتها عددا من العرقيّات والمذاهب المختلفة بل المتنافرة في بعض الأحيان.

فباكستان تضمّ العرقيات البنجابية والسندية والبشتونية والبلوشية والكشميرية، فضلا عن عرقيات أقل حجما في جميع الأقاليم.

أمّا أفغانستان فتضمّ البشتون والطاجيك والأوزبك والهزارة والبلوش والباشائي وعرقيات أخرى صغيرة، إضافة إلى مجموعات متفرّقة في عدد من أرجاء البلاد تُعرف بـ (قَوْمِ عَرَب)، وهم بقايا القبائل العربيّة التّي استوطنت تلك البلاد بعد الفتح الإسلاميّ وفقدت مع مرور الزّمن لغتها وعاداتها العربيّة إلا اليسير النّادر من الألفاظ والطّبائع.

أمّا إيران فتضمّ الفرس والترك والبلوش والأكراد والعرب وعرقيات أخرى أصغر حجما.

شعوبٌ متعدّدة إذن في الدّول الثلاث، تتباين في عاداتها وتقاليدها ودرجة تمدّنها، كما تختلف في درجة تمسّكها بالإسلام الذّي تدين به في معظمها.

فالشّعب الباكستانيّ مثلا متديّن بشكل عام خاصّة في العبادات وما تعلّق بالمظاهر والمناسبات الدّينية والجوانب الرّوحية، ويشبهه في ذلك الشّعب الأفغاني، وإن كان يتفوّق عليه في التّمسك الشّديد ببعض المظاهر الدينية، فترى مثلا مناطق كاملة في أفغانستان يُطلق أهلها اللّحى، حتّى قطّاع الطّرق واللّصوص منهم، ويقولون إنّها سنّة نبويّة، وإن كان بعض الأفغان قد حدّثني أنّ مردّ ذلك إلى الإهمال وعدم القدرة على الحلق بانتظام، فصارت على ما يبدو عادة أكثر منها عبادة.

ومن أغرب ما سمعتُ في هذا السّياق أنّ مجموعة من قطّاع الطّرق في ولاية قندهار جنوبي أفغانستان كانوا يفتّشون عددا من المارّة ويسلبونهم ما في جيوبهم، فانتبه أحد أفراد المجموعة وهو يفتّش أحد الضّحايا إلى أنّه حليق، فصفعه قائلا: لماذا لا تطلق لحيتك..!

وسمعتُ عن قاطع طريق آخر كان يفتّش جيوب ضحيته فوجد في أحدها مصحفا فقلّب صفحاته باحترام فعثر فيه على ورقة نقديّة فوضعها في جيبه على الفور، وقبّل المصحف وأعاده باحترام شديد إلى جيب صاحبه، فالأفغان يقدّسون المصحف بشكل كبير وترى أحدهم وقد لفّ مصحفه في عدد من قطع القماش قد تصل إلى سبع قطع واحدة بعد أخرى.

كما يتمسّك الأفغانُ بأداء السّنن الرّاتبة وقت الصّلوات، فتجد العاميّ منهم إذا سئل مثلا عن عدد ركعات صلاة الظّهر أجاب بأنّها عشرة، حيث يداومون على أداء أربع ركعات قبل الظّهر وركعتين بعده.

ومع مظاهر التّدين في تلك البلاد يرصد المتابعُ شيئا غريبا، خاصّة في إيران وباكستان، وهو أنّ البعض لا زال يمارس تقاليد وعادات غير إسلامية، تعود جذورها في باكستان إلى الهندوسية، وتعود في إيران إلى المجوسية.

وقد أثرتُ هذا الموضوع مع مثقّف إيرانيّ متخصّص في علم الاجتماع، فشرح لي الأمر من وجهة نظر أخرى مفادها أنّ العرب دخلوا في الإسلام "بكاملهم" وتركوا كلّ شيء دونه، وبعض الشّعوب الأخرى حافظت على عاداتها ونقلتها معها إلى حياتها الإسلاميّة الجديدة، وهو لا يرى في ذلك بأسا ما دام الأمر لا يتعارض مع تعاليم الإسلام.

وتختلف هذه الشّعوب أيضا في موقفها من العرب الذّين حملوا رسالة الإسلام، فمن تلك الشّعوب من يحمل إلى الآن حساسيّة تجاه العنصر العربيّ.. تلك الحساسيّة التي كانت وليدة ظروف تاريخيّة محدّدة، لكنّها عادت إلى الظّهور من جديد في العقود الأخيرة.

فالفرس، أو القوميّون منهم بشكل أدقّ، ما زالوا يرون أنّ العرب الفاتحين هم السّبب وراء دمار دولة السّاسانيّين وحضارتهم، وقد سمعتُ هذا الكلام بنفسي مرّة وصُعقتُ به، فقد كنتُ بصحبة زميلين صحفيّين في طهران أحدهما مغربيّ والآخر جزائريّ، وركبنا سيّارة أجرة، وبادر السّائق إلى سؤالنا عن بلادنا فأجبتُ بأنّنا من الجزائر والمغرب فتساءل إنّ كنّا مسلمين أم لا..؟ فكان ردّي بالإيجاب، فبدأ هجوما كاسحا علينا، فنحن الذّين دمّرنا حضارة الفرس على حدّ قوله، وقومُه عرفوا حقوق الإنسان،

حسب زعمه، قبل آلاف السّنين لكنّ رسالة الإسلام جاءت ودمّرت كلّ شيء وهكذا.. ولم أشأ أن أدخل معه في جدال حول الموضوع، لكنّني حين التقيتُ زميلا عراقيا شيعيا بعد ذلك، وكان من المعجبين بالإمام الخميني ونظام الثّورة الإسلامية، حكيتُ له القصّة فقلّل من شأنها وقال إنّ أمثال هؤلاء قلّة قليلة في إيران ولا وزن لهم ولا تأثير بين غالبيّة الإيرانيين.

والحساسيّة من العرب تنتشر بين كثير من الأفغان أيضا، وممّا لفت نظري في أفغانستان أنّ بعض المناطق تُطلق على الحلاّق اسم (خليفة) والحلاّقُ (مع احترامي الشّديد لهذه المهنة وأصحابها) رجلٌ دون غيره في الرّيف الأفغانيّ فهو طبّاخ ومزيّن ومعالج أسنان، ويستطيع أيٌّ من وجهاء القرية أن ينادي على الحلاّق أو ابنه ليرسل معه شيئا إلى بيته، أو يقضي له حاجة ما. وهذا النّوع من الحلاّقين لا يتقاضى أجرا على عمله في أكثر مناطق الرّيف الأفغانيّ، حيث يستلم قدرا معلوما من المحصول الزّراعيّ من كلّ فلاّح في نهاية موسم الحصاد، ويستلم نقودا قليلة في الأعراس والولائم الكبيرة فقط. وحسب معلومات استقيتُها من مثقّف أفغاني فإنّ بعضا ممن كان يكره العرب والخلافة الإسلامية في أزمان ماضية أطلق كلمةَ الخليفة على الحلاّق تهكّما وانتقاصا من قيمة خليفة المسلمين.

ومن خلال معايشتي لتلك الشّعوب والغوص بعض الشّيء في طبائعها وتطلّعاتها القومية؛ وصلتُ إلى نتيجة مفادها أنّ علينا معاشر العرب أن "نَتُوبَ" عن فكرة التّفوق والسّيطرة والغلبة على بقية الشعوب المسلمة، وأن نعامل تلك الشّعوب بكل احترام وتقدير ونِدِّيّة، لأنّ فكرة التّفوّق العربيّ تساهم في تأجيج الخلافات وتثير الحساسيّات، والشّعوب الإسلامية، في حقيقة الأمر، تمثّل درعا استراتيجيا مساندا للأمّة العربية، وإذا تمكّن الخصومُ منها نفذوا إلى قلب الأمّة ومركز الثّقل فيها.

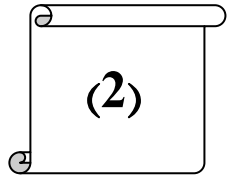

(2) الدِّين والمعاملة

"بالعرب يبقى الإسلام وبالعجم يقوى"، مقولة سمعتها من أحد الأصدقاء مرّة، ولم استسغها تماما، وربّما جال في خاطري حينها أنّها تتعارض مع الحديث الشّريف "لا فرق بين عربي ولا أعجميّ إلا بالتّقوى".

ولكن.. بعد معايشتي لعدد من الشّعوب الإسلامية التّي لا تتحدث العربيّة أدركتُ للأسف صحّة تلك المقولة، بشكل نسبيّ على الأقلّ، فالأعاجم قوّة كبيرة للإسلام لكنّ البقاء والنّقاء الإسلاميّ يصعب أن يتحقّق دون العرب الذّين نزل القرآن بلغتهم وكان الرّسول صلّى الله عليه وسلم منهم.

والخلفيّات الثّقافية والدّينية السّابقة لبعض الشّعوب الإسلامية، وعدم معرفتها باللّغة العربية تؤدي في كثير من العبادات والتّطبيقات العمليّة للشّعائر والشّرائع الإسلامية إلى خلط وسطحية، وإلى الفصل بين المعاملات والعبادات.

الإسلام دين ودولة وعبادة ومعاملات، وإذا كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد أكّد أهمية الوقوف بعرفة بقوله: الحجّ عرفة، فإنّ الأمة تداولت بالصّيغة نفسها قولا تكرّر معناه في أحاديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهو: الدّين المعاملة.

فالدّين الإسلاميّ عند من يفهمه بشكل صحيح ومتكامل، هو عبادة تربط العبد بالخالق، ومعاملة يومية تجعل من المسلم عنصرا صالحا وفاعلا، ولبنة بناء قوية في المجتمع.

هذا الفهم للإسلام يصعب أن نجده عند جميع المسلمين في بلد مثل باكستان ودول إسلامية مشابهة لها في تركيبتها الثّقافية والدينية؛ فيتحول الدين إلى عبادات ومظاهر ومناسبات ومحافل قد يتشدّدون في أدائها والإنكار الشّديد على من يتركها، وفي المقابل نجد تسيّبا في المعاملات اليوميّة سواء التّجارية، أو ما تعلّق منها بالتّعايش مع الآخرين من جيران وعمّال ومرؤوسين.

ولستُ أتحدّث هنا عن التّرك الكلّي لمظاهر وسلوكيّات التدّين، فالأمر شائع في عالمنا العربي، لكنّ المشكلة هناك أنّك تجد من يحافظ على مظاهر الدّين بحذافيرها، ويصلّي الصّلوات الخمس في المسجد بقميص أبيض ناصع، ولحية منسّقة باعتناء شديد، لكنّه يغشّ ويظلم، ويقتل بشراسة أيضا كما هو الحال في أفغانستان.

ولعلّ من زار البقاع المقدّسة والحرمين الشّريفين حاجا أو معتمرا يلاحظ أنّ أكثر من يقبّل الكعبة المشرّفة ويتمسّح بها، بل ويحاول قطع شيء من كسائها للبركة هم من الأعاجم، وتراهم يفعلون ذلك ويستميتون في مغافلة الحرس الذّي يحيط بالكعبة لمنع مثل هذه الحركات حرصا على النّظام ودفعا للزّحام، أو لأنّها تصرّفات غير شرعية.

وماء زمزم الذّي جاء في الحديث أنه "لما شُرِب له"، يتبرّك به بعض الأعاجم بطريقة أخرى، حيث يعمد الحاج أو المعتمر منهم إلى قماش أبيض يصلح أن يكون كَفَنًا ويغمسه في ماء زمزم ثمّ يجفّفه ليحمله معه إلى بلاده ويوصي بأن يُكفّن به بعد موته.

وعندما يعود الحاج إلى بلاده، في بعض البلاد الإسلامية الأعجمية، يحمل معه كمية محدودة من ماء زمزم كعادة أكثر الحجّاج، ولأنّ كمية الماء لن تصل إلى أهل حيّه أو قريته فضلا عن جميع زوّاره؛ فإنّه يعمد إلى وضع جزء من ماء زمزم في وعاء كبير مملوء بالماء العاديّ، قد يكون خزّانا في بعض الأحيان، ليشرب منه أكبر عدد من النّاس، فبعد أن يختلط ماء زمزم بالماء العاديّ الكثير؛ يصل جزء ولو يسير منه إلى كلّ الشّاربين وتحلّ البركة المطلوبة.

وشبيه بذلك ما يفعلونه بالتّمر الذّي يُحضره الحاج معه من الدّيار المقدّسة حيث يُقسّم إلى أجزاء صغيرة ليصل إلى أكبر عدد ممكن من زوّار الحاج، ووحدهم المحظوظون، أو أصحاب المقامات العالية من بين الزّوار، يحصلون على حبّة كاملة من تمر البقاع المقدّسة.

أمّا المصحف الشّريف فيُقدّس بشكل كبير، والباكستانيون مثلا لا يتناولونه إلا بيدين اثنتين، ولا يضعه الشّخص على الرّف أو الطّاولة أو يأخذه إلا متوجّها له بكامل وجهه وجسمه، ولا يضعه إلاّ في مكان مرتفع عن كلّ ما في الغرفة أو المكان، والفنادق التّي تضع مصحفا في غرف النّوم تخصّص له مكانا عاليا في الغرفة.

وإذا اضطرّ أحدهم أن يمرّ عبر المسجد حاملا حذاءه في يده فإنّه يسير وهو مائل بيده، التّي تحمل الحذاء، نحو الأرض ويكاد يلامسها، حيث يخشى أن يكون مستوى الحذاء فوق مستوى المصاحف الموجودة على رفوف أو طاولات المسجد.

وصلاة التّراويح عند المسلمين العرب –أو الذّين يفهمون العربية– فرصة لسماع القرآن الكريم كاملا ومحاولة التّدبّر في معانيه للتذكّر والخشوع، أمّا في باكستان ودول أعجمية أخرى فإنّ الأمر مختلف بعض

الشّيء، فالهمّ الأكبر عند عوام النّاس هو ختم القرآن فقط، لأنّ معرفتهم باللّغة العربيّة – لغة القرآن الكريم– لا تتعدّى كلمات معدودة.

وقد تعوّد المسلمون في باكستان على ما يمكن تسميته بنوع خاص من صلاة التراويح صار يعرف اصطلاحا بـ(الشّبينة)، وهي مشتقّة على ما يبدو من (شَب) الكلمة الفارسيّة التّي تعني اللّيل، والشّبينة هي ختم القرآن الكريم في ثلاث ليال متوالية في صلاة التراويح أو بعدها حتّى موعد السّحور.

ومع مضي الزّمن صار هناك عدد من المساجد الباكستانية التّي تختم القرآن كلّ ثلاث ليال خلال صلاة التّراويح، وهي فرصة لكلّ من أراد أن يحضر ختمة كاملة للقرآن الكريم في رمضان، ثمّ ينصرف بعد ذلك وخلال ما بقي من شهر رمضان إلى مسجد حيّه الصّغير وإلى إمامه المتواضع الذّي لا يحفظ القرآن كاملا، وبالتّالي يصلي التّراويح بقصار الصّور، أو يكتفي بما صلّى وينصرف عن صلاة التّراويح إلى أن يأتي رمضان اللاّحق.

وهناك مساجد أخرى تختم القرآن كما هو الحال في بلادنا خلال خمس وعشرين أو سبع وعشرين ليلة من ليالي الشّهر الفضيل، ثمّ تُخصّص اللّيالي الثّلاث الأخيرة لـ (شبينة) كبيرة يحضر فيها عدد من قرّاء المنطقة المعروفين وتستمرّ الصّلاة من بعد العشاء والتراويح إلى وقت السّحور، حيث تختم في اللّيلة الأخيرة بدعاء طويل ومؤثّر.

والعجيب أنّ الجميع في باكستان (كما سمعتُ) يحرص على حضور (الشّبينة) هذه، علامة على احترام الدّين والالتزام به، وقد أخبرني زميل باكستاني أنّ رئيسة الوزراء السّابقة (بينظير بوتو) كانت تحرص أيضا

على حضور (الشّبينة) خلال شهر رمضان، رغم أنّ الجميع ينظر إليها في باكستان كرمز للمرأة العلمانيّة المتحرّرة.

وحضور السّيدة (بوتو) للشّبينة يعود بنا إلى الحديث عن إشكالية التّديّن في باكستان، فالجميع – كما بدا لي هناك– متديّنون إذا تعلّق الأمر بالعبادات والمظاهر الدّينية، فإذا تحولّوا إلى السّياسة والمعاملات كان لهم شأن آخر.

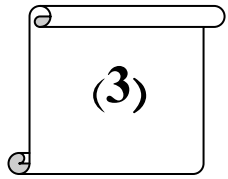

(3) اللّغة العربيّة في باكستان

قصّة اللّغة العربيّة في باكستان بدأت مع الأيّام الأولى لتأسيس الدولة بعد الانفصال عن الدّولة الأمّ الهند عام 1947م.

ففي تلك الأيّام الحاسمة التّي بدأ فيها السّاسة الباكستانيون وضع دستور وقوانين ومؤسّسات تحكم دولتهم الفتيّة؛ برزت إشكاليّة اللّغة التّي ينبغي أن تكون الأولى في بلاد تحتوي على عدد لا بأس به من اللّغات بينها خمس لغات رئيسيّة هي الأُرْدُو والبَشْتُو والبَلُوشِي والبَنْجَابِي والسِّنْدِي.

ومع تعدّد اللّغات في هذه الدّولة الوليدة رُشّحت اللّغة العربية لتكون اللّغة الرّسمية الأولى في البلاد، وأُورِدُ في هذا الصّدد رواية حيّة توضح ما حدث.

فقد أخبرني الصّديق نور محمّد جمعة، المحاضر بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، نقلا عن الشّيخ بشير السّيالكُوتي مدير معهد اللّغة العربية بإسلام آباد الذّي أخبره أنّ مولانا الشّيخ ظفر أحمد أنصاري، وقد كان من مؤسّسي باكستان، أخبره بنفسه: "أنّنا كنّا في معضلة عويصة لما كنّا نقرّر اللّغة الرّسمية للبلد بعد الانفصال عن الهند، فقد كان بلدنا باكستان مقسّما بين شطرين الغربيّ والشّرقيّ (أي بين باكستان الحالية وبنجلاديش التي انفصلت عن باكستان عام 1971)، فأصحاب باكستان الحاليّة كانوا يصرّون على اللّغة الأرديّة أو البنجابيّة وأصحاب بنغلاديش (كانت تسمى باكستان الشّرقية) كانوا يصرّون على اللّغة البنغالية، فصوّتنا

نحن بأن تكون اللّغة العربية، كونها لغة دين يُجمع الجميع عليه، هي اللّغة الرّسمية للبلد وقد كنّا نحن ثمانون شخصا من أعضاء البرلمان ممن رفعنا الأمر وصوّتنا له. وكان حلاّ جذريا موفّقا، إلاّ أنّ الإنجليز تدّخلوا من خلال عملائهم الإقطاعيين في البنجاب، وبما كان لديهم من السّلطة الاقتصادية استطاعوا أن يشتروا الذّمم وأن يضغطوا لصالح رأيهم، فكان ما أرادوا وأُعلنت اللّغة الإنجليزية لغة رسميّة للبلد. واستمرت الجهود الحكومية الباكستانية متواضعة في مسألة اللّغة العربيّة إلى أن جاء الجنرال ضياء الحق إلى الحكم حيث توّج فخامة الرّئيس عنايته باللّغة العربية بأن أصدر أمره السّامي بجعل العربيّة مادّة أساسيّة ابتداء من الصفّ السّادس إلى الصفّ الثّاني عشر".

ومنذ مطلع الثّمانينيات من القرن الميلادي الماضي لعبت كلّية اللّغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد دورا كبيرا في تخريج باكستانيين يتحدّثون العربيّة بطلاقة، بل ويتذوّقون الشّعر العربيّ ويكتب بعضهم القصّة ويقرض الشّعر العربيّ، ويعود الفضل في ذلك إلى الأزهر الشّريف ودار العلوم بمصر حيث كانا يتكفّلان ببعثات علميّة وأساتذة زائرين للكليّة بشكل منتظم قارب العشرين عاما، إلى جانب بعض المؤسّسات العلميّة والخيريّة في دول الخليج العربيّة التّي كانت تقوم أيضا بكفالة عدد من الأساتذة العرب.

وتنتشر كليّات وأقسام اللّغة العربية، فضلا عن الدّراسات الإسلامية، في أغلب الجامعات الباكستانية لكنّها في الغالب تخرّج طلابا لا يحسن أغلبهم التّحدث بالعربية، فالأستاذ يشرح درس البلاغة أو النحو بلغة الأردو أو اللّغة المحليّة، وحتّى رسالة الماجستير التّي قد يكتبها الطّالب باللّغة العربية تناقشها اللّجنة العلمية باللّغة الأردية أو المحلية.

ونفس الوضع تماما نجده في المدارس أو الجامعات الدينية التقليدية التّي تدرّس مناهج في اللّغة العربية والعلوم الدينية، فأغلب الطّلاب لا يحسنون تركيب عدة جمل عربية دون أخطاء، وفي أحيان كثيرة تجد المدرّسين والعلماء على نفس الشّاكلة، وترى أحدهم يشرح لطلاّبه درس النّحو والصّرف والبلاغة بلغته على أحسن ما يكون، ويغوص في "شرح ابن عقيل" مثلا ويتحدّث عن علم العروض وبحور الشّعر لكنّه لا يستطيع أن يتحدّث العربيةّ لمدة دقيقة واحدة دون أن يخطئ أو يمزج العربية بلغته المحليّة.

وفي منهج الصرف يحفظ الطّالب الصّيّغ الصّرفية هكذا.. نصر، ينصر، ننصر، ينصرون، ينصرهم... إلخ، ومع أنّهم، كما سبق الحديث، لا يحسنون الحديث بالعربيّة رغم تضلّعهم في النّحو والصرف؛ فإنّ البعض يحاول تطبيق ما يدرس، كما سمعتُ ورأيتُ، فقد كنتُ في زيارة لعربيّ يقيم في إحدى المدن الباكستانية وكان له مع جيرانه وُدّ وصداقة على ما يبدو فأرسلوا له وعاءَ حليب، ولأنّ من عادة العرب وشعوب أخرى أيضا أن لا يُعاد الإناءُ في مثل هذه الحالات فارغا فقد ملأه تمرا وأعاده بيد الصبيّ الذّي جاء به، وكان في المجلس شابّ من طلاّب المدارس الدّينية جاء لزيارة هذا العربي، وأراد التّعليق بما تعلّم من العربيّة ليعبّر لصاحب البيت عن أنّ الجيران أهدوكم شيئا فأهديتموهم شيئا آخر، فقال دون تردّد معتقدا أنه يغرّد بالعربيّة تغريدا: (ينصرونكم وتنصرونهم).

والمدارس والجامعات الدّينية في باكستان تُعد بالآلاف، ويؤمّها عددٌ كبيرٌ من الطّلاب الفقراء غالبا، والمتخرّجون منها على مدى العقود الماضية يعدّون بعشرات الملايين.

وإذا أُضِيف إلى خرّيجي المدارس والجامعات الدّينية الملايين من الباكستانيين الذيّن عملوا سابقا، أو ما زالوا يعملون، في دول الخليج العربي؛ فسنجدُ نسبةً كبيرةً من الباكستانيين يتحدثّون العربيّة أو لهم علاقة بها على الأقلّ، وإن لم يتحدّثوها سوى بشكل ضعيف أو مكسّر، كما يفعل من كان في الخليج حيث يتحدّثون لهجة عربيّة هجينة، وهي ما صار يعرف باللّغة الثّانيّة في دول الخليج.. وهؤلاء تجدهم أينما ذهبت في باكستان، فبمجرّد أن يعرف الواحد منهم أنّك عربيّ يبدأ الحديث معك بتلك اللّغة: أنت زين، أنت بلد فين، أنا فيه شغل في دبي، اثنين سنة.. ومما يُحكى عن أحدهم أنّه التقي عربيّا وأراد أن يبيّن له درجة كرمه فدعاه إلى زيارة منطقته قائلا له: (أنت فِيه بِجِي أنا فيه اثنين خروف موت). يريد أن يقول له: عندما تأتي لزيارتنا سوف أذبح لك خروفين، وآخر أراد أن يقول إنّه كان يعمل لمدة سنتين في دولة البحرين فقال: (أنا فيه شغل اثنين سنة في اثنين بحر).

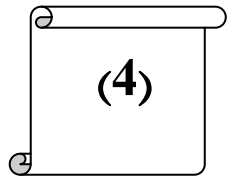

إسلام آباد مدينة الهدوء والخضرة

ظهرت دولة باكستان إلى الوجود عام 1947 بعد استقلال شبه القارّة الهنديّة عن ما كان يُعرف بالإمبراطورية البريطانية، التّي كانت تفتخر يوما ما بأنّ أراضيها لا تغيب عنها الشّمس.

الدّولة الوليدة، التّي يعني اسمها "أرض النّقاء"، تأسّست لتكون موطنا لمسلمي شبه القارّة الهنديّة، وفي مقابلها تأسّست دولة الهند الحديثة التي ضمّت الهنود غير المسلمين وإن بقيت فيها أقليّة مسلمة كبيرة.

ومنذ الاستقلال والتأسيس ظلّت مدينة كراتشي، التّي تقع على شاطئ بحر العرب بالجنوب الباكستانيّ، هي العاصمة السّياسية والاقتصادية، حتى سنة 1958 حين اختيرت منطقة شمال مدينة "رَوَالْبَنْدِي" لتكون عاصمة مؤقّتة للبلاد، إلى أن تمّت أشغال بناء مدينة إسلام آباد العاصمة الجديدة عام 1967.

إسلام آباد تقع بمحاذاة "روالبندي" التّي تعد إحدى المدن الكبرى في باكستان، و"تمتاز" على شاكلة "لاهور" و"بيشاور" و"كراتشي" و"كويتا" بشدّة الضّوضاء والكثافة السّكانية العالية والأعداد الكبيرة من المؤسّسات والمعامل والمصانع.

وكلمة (آباد) تتكرّر كثيرا في أسماء المدن والقرى في أفغانستان والهند وباكستان وبنجلاديش، وهي كلمة فارسية الأصل انتقلت إلى اللّغتين الهندية والأردية وتعني المعمور أو المزروع أو المأهول من الأماكن والأراضي.

وقد أقيمت إسلام آباد في غابة كبيرة ومساحات مكسوّة بالخضرة الدّائمة، لتجد في حدودها الشّمالية سلسلة جبال (مَارْجِلاّ) الخضراء الجميلة، والتّي يمكن من على سفوحها تبيّن معالم المدينة بكلّ وضوح، حيث تبدو فيها الأشجار والمناطق الخضراء أكثر من المباني والأحياء السّكنية.

وهذه الجبال (مَارْجِلاّ) صارت جزءا لا يتجزأ من معالم إسلام آباد السّياحية، فقد تحوّلت إلى منتجع سياحيّ مفتوح بعد أن شقّت الحكومة فيها طريقا يوصل إلى أعلاها أين شُيّدت أماكن للرّاحة والاستجمام وعددا من المطاعم والمقاهي.

المدينة بتخطيط مسبق حافظت في مجملها على طرقات وشوارع واسعة ومبان أرضيّة تحيط بها مساحات خضراء منسقّة بعناية خاصّة في الأحياء الرّاقية، ولم يشذ عن قاعدة البناء الأرضي إلا شارع المال والأعمال الذّي تأخّر تشييده وصار يعرف بـ (بْلُو إيرْيَا) أي المنطقة الزّرقاء، حيث ظهرت فيه سلسلة من الأبراج العاليّة، يتوسطها طريق سريع يؤدّي إلى مبنى البرلمان ومنه إلى بقيّة مؤسّسات الحكومة الفيدراليّة.

إسلام آباد حافظت على الهدوء ونقاء الجوّ عبر إجراءات مشدّدة تمنع دخول الشّاحنات الكبيرة إلا للضّرورة وبعدد محدود، كما تحظر استعمال درّاجات "الرِّكْشَا" المزعجة في شوارعها وطرقاتها، وهي درّاجات ثلاثيّة العجلات تُستعمل لنقل الرّكاب، وتطلق أصواتا مزعجة ودخانا،

وتنتشر بشكل كبير خاصة في الهند وباكستان وبنجلاديش وعدد من الدول الآسيوية الأخرى.

ومدينة إسلام آباد، بكاملها تقريبا، أحياء سكنيّة إضافة إلى إدارات الحكومة الفدرالية، حيث البرلمان بمبناه المميّز، والمحكمة العليا وقصور ودور الضّيافة الرّسمية، ومباني مختلف الوزارات وعدد من الجامعات منها جامعة (قائد أعظم)، والجامعة الإسلامية العالمية، وجامعة العلاّمة إقبال المفتوحة.

ومن أبرز المعالم في العاصمة إسلام آباد، بل وفي باكستان كلّها، مسجد فيصل، أو مسجد "شاه فيصل" كما يسّميه الباكستانيون، وهو مسجد كبير ذو طابع معماري مميّز تبرّع به الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله لباكستان وشعبها خلال زيارته التّاريخية لها إبّان فترة حكمه.

ولكي تكتمل صورة العاصمة إسلام آباد يحسن الحديث عن منطقة (مَرِي) الجبلية السّياحية التّي تبعد عن إسلام آباد بمسافة ليست طويلة، وتعدّ جزءا من سلسلة جبال الهيمالايا الشّهيرة أضخم وأعلى سلسلة جبلية في العالم، والتّي تمتد في أراضي كلّ من باكستان وكشمير بجزأيها الباكستانيّ والهنديّ وتصل إلى مملكة نيبال ومناطق التّبت.

هذه الجبال والقرى الصغيرة النّائمة على سفوحها، والمرافق السّياحية التي تنتشر فيها؛ يرتادها النّاس، خاصة سكان إسلام آباد، صيفا وشتاء. في الصيف يهربون إليها من حرارة ورطوبة جوّ المدن، وفي الشّتاء يشدّون الرّحال إليها للتمتّع بمناظر الثّلج الذّي يكسو الأشجار والبيوت والأحجار ويحوّل تلك المناطق، خاصة في الأيام الأولى لتساقط الثّلج، إلى لوحة بديعة الحسن تشدّ النّاظرين.

ومن مدينة "مَرِي" الصّغيرة تتفرّع عدّة طرق يتجّه أحدها إلى إقليم كشمير المتنازع عليه بين الهند وباكستان، ويتّجه آخر إلى منطقة "خَانْسْبُور" وهي الأكثر جمالا وإثارة في المناطق المحيطة بـ (مَرِي)، حيث تمتاز بأشجارها الطّويلة، ووديانها السّحيقة.

وقد تملّكني شعور بالخوف الشّديد عندما زرتُها أولّ مرة، فالطّريق ضيّقة ملتويّة وقريبة من حوافّ الوديان السّحيقة، وأيّ خطأ من سائق السّيارة أو الحافلة لا يعني سوى الموت المحقّق.

زرتُ "خانسبور" مرّة مرورا بمدينة "مري"، وكنتُ بصحبة ثلاثة من الزّملاء الصّحفيين هم رمضان حسين مراسل قناة النّيل للأخبار المصريّة، وحازم لبّد مراسل تلفزّيون سلطنة عمان، ونبيل هريدي مبعوث وكالة الأسوشييتد برس.

كانت المشاهد غاية في الجمال والرّوعة، فالأراضي مكسوّة بالحشائش والنباتات الخضراء، وأشجار المرتفعات تعانق السّماء، بينما تطلّ أشجار أخرى برؤوسها على الطّريق وأصولها وجذورها ضاربة في أعماق الوديان العميقة.

تجوّلنا بالسّيارة وترجّلنا بعد ذلك لنتفحّص الطّبيعة وجمالها أكثر فأكثر، واقتربنا من منطقة تنتشر فيها القرود لنقف هناك عند بائع للذّرة يشويها لزبائنه في موقد أمامه ويقدّمها ساخنة، بعد أن يمرّر عليها قطعة ليمون غُمست في سائل ملوّن بفعل التّوابل والفلفل.

اقترب شخص، كان يقف إلى جانب بائع الذّرة، من حافّة الوادي العميق وبدأ يطلق صفيرا بنغم معيّن، ولم نفهم شيئا في البداية إلاّ عندما لاحظنا عددا من القرود تقترب من المكان، ليتزايد العدد بعد ذلك حتّى قارب العشرين بين صغير وكبير.

أفهمَنا الرجلُ بشكل عمليّ أنّ القرود تتلقّف سنبلة الذّرة من يده بخفّة وبراعة، فبدأنا نأخذ السّنابل غير المشويّة من طبق كبير بيد هذا الرّجل "الدّاهية" ونعرضها على القرود فتقترب منّا جدّا وتستقبل سنابل الذّرة بحركات وقفزات بهلوانيّة مسليّة للغاية، وكنّا نصوّر بعضنا البعض إلى أن سئمنا وتوقّفنا فغادر قطيع القرود.

التفتنا إلى الرّجل فعرفنا أنّه كان يعدّ سنابل "اللّعب" بدقّة متناهيّة ليخبرنا على الفور أنّ تكاليف ما استعملنا يساوي 160 روبية، وكان المبلغ بسيطا بالنّسبة لنا فهو لا يتعدّى ثلاثة دولارات، لكنّه بالنّسبة لباعة بسطاء مثلهم ربّما يفوق فوائد يوم كامل في بيع سنابل الذّرة، ويساوي ضعف الأجرة اليوميّة لعامل بسيط في البناء أو النّظافة أو ما شابه ذلك.

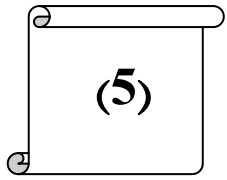

(5) الطّريق إلى كابل

عندما قرّرت إدارةُ قناة الجزيرة القطريّة افتتاح مكتب جديد لها في العاصمة الأفغانيّة كابل كنتُ المرشّح لأكون مديرا له ومراسلا في نفس الوقت.

قرار السّفر إلى كابل لم يكن صعبا في البداية خاصّة أنّ تنفيذه تأخّر لعدّة أشهر، لكنّ المخاوف من مدينة كابل وما فيها بدأت تزداد عندما بدأ العدّ التّنازليّ ليوم السّفر حتّى أنّني فكّرت جديا في التّراجع عن هذا الأمر، وأذكر أنّني تحدثتُ في هذا الشّأن مع الزّميل وضّاح خنفر الذّي زار كابل قبلي وكان حينها مراسلا للجزيرة؛ فبالغ في وصف الأمن الذّي يسود العاصمة الأفغانية كابل مؤكدا أنّها أكثر أمنا من "جهانسبورغ" بجنوب أفريقيا حيث كان وضّاح يقيم لعدّة سنوات.

المخاوف كانت أمنيّة بحتة من جانب، ومن الجانب الآخر كنت أخشى "مخلّفات" مكتب الزّميل تيسير علّوني، فالجزيرة في الفترة التّي أعقبت سقوط طالبان كانت من "المغضوب عليهم" عند أهل الشّمال الأفغاني وحلفائهم خصوم حركة طالبان.

الرّحلة من الدّوحة إلى كابل كانت عبر دولة الإمارات العربية المتحدة، فهي الدّولة العربية الوحيدة حينذاك التّي كانت تنزل وتنطلق منها طائرات شركة (آريانا) الأفغانية، أو بالأحرى ما بقي من شركة طيران في بلاد تعرضّت لمختلف أنواع الدّمار على مدى ثلاثين عاما.

تحرّكنا في النّصف الثاني من شهر أوت/أغسطس عام 2002، وكنّا ثلاثة أشخاص فقط، وكانت الخطّة تقتضي أن نسافر إلى كابل ونبدأ رحلة البحث عن مقرّ مناسب لمكتب الجزيرة الجديد خلفا للمكتب الذّي دمّرته الطّائرات الأمريكية؛ على أن يلتحق بنا بعد ذلك فريق فنّي مع ما يلزم من معدّات وأجهزة ضروريّة لانطلاق العمل.

وصلنا إلى مطار "الشّارقة" الذّي لا يبعد كثيرا عن مطار دبي الدّولي، حيث تنطلق من هناك أغلب رحلات شركة (آريانا) الأفغانيّة.

صعدنا الطّائرة من الخلف كما لو كانت طائرة شحن أو طائرة عسكريّة، وفور دخولنا استقبلتنا رائحة كريهة مزعجة وظلّت كذلك طوال الرّحلة، رغم محاولة أحد المضيفين بعد ذلك تغييرها عبر قارورة ملطّف هواء صغيرة.

لم تكن هناك ضرورة للالتزام بأرقام المقاعد المكتوبة على بطاقات الرّكوب، بل طلب منّا طاقم الخدمة التوجّه إلى النّصف الأماميّ من الطّائرة التّي كانت قديمة "قد أكل الدّهر عليها وشرب"، أو هكذا بدت لي على الأقلّ.

وبعد فترة من الانتظار اتّضح "أمر حشرنا في النّصف الأمامي" حيث بدأ المُضيفون في استقبال أعداد من الرّكاب تبيّن، من ملابسهم والبؤس الذّي بدا على وجوههم والصُّرَر البسيطة التّي يحملونها، أنّهم شباب أفغان كانوا في السّجون الإماراتية يُرحّلون إلى بلادهم لدخولهم البلاد بطريقة غير قانونية أو لانتهاء تأشيراتهم أو إقاماتهم في دولة الإمارات.

الأمر كان عاديا إلى هذا الحدّ لكنّ نصف الطائرة الخالي لم يتسّع لهؤلاء المساكين، وظلّ قسم منهم دون مقاعد، فكيف تصرّف طاقم الطّائرة..؟ أخذوهم إلى مقاعد درجة رجال الأعمال التّي كانت خالية،

فأجلسوهم هناك، فكان أن ركب السّجناء في درجة رجال الأعمال، وإن كان الجميع سواء، فالدّرجات في الطّائرات الأفغانيّة لم تكن قد تمايزت بشكل كبير في ذلك الوقت.

حلّقت الطّائرة الأفغانية في الجوّ بسلام، فخرجت من الأجواء الإماراتية لتقطع الخليج العربي، أو الفارسي حسب التّسميّة الإيرانية، ثمّ تدخل الأجواء الإيرانية وتلج من هناك إلى أفغانستان.

جاء موعد وجبة الطّعام ونحن فوق الأراضي الإيرانية، واجتهد مضيفو الطّائرة في توزيع الطّعام على الجميع وسط أصوات مزعجة من هنا وهناك، فأغلب الرّكاب كانوا من العمّال الأفغان البسطاء في الإمارات العربيّة المتّحدة ودول الخليج الأخرى، ولم يكن رفع الأصوات والضّحكات العاليّة في مكان عامّ كالطّائرة أمرا مستهجنا عندهم.

وعندما دخلت الطّائرة المجال الجويّ الأفغانيّ بدأ الرّكاب الأفغان يحدّقون في الجبال والسّهول محاولين التّعرف على مناطقهم، فعُلوّ الطائرة لم يكن كبيرا، وكان بعضهم يطلق ضحكات وطرائف وصفها مرافقنا الأفغاني بالسّخيفة والمستهلكة، فقد تكرّرت على مسمعه طرفة قديمة، على حدّ قوله، وهي أن يقول الرّاكب لصديقه عندما يرى منطقته من الجوّ: أطلبْ من الطّيار أن يتوقّف هنا لأنزل، وهي جملة كافية لإطلاق ضحكات عاليّة.

حلّقت بنا الطائرةُ فوق مدينة كابل التّي بدت مترامية الأطراف تحيط بها الجبال من جوانبها الأربعة، ويتوسّطها جبل ساهم في تقسيمها أثناء الحرب الأهليّة إلى منطقتي حرب ودمار.

نزلت الطائرة بسلام، والحقيقة أن الطّيار كان بارعا في إنزالها رغم تواضع مدرج المطار، وسار بها حتى حاذى مبنى متواضعا للغاية تبيّن لنا من خلال برج المراقبة أنّه مبنى مطار كابل الدوليّ.

المطار كان أسوأ مما توقعتُ وكان يفتقر إلى أبسط الخدمات والتّجهيزات وبدأ عمال التّفريغ في رمي الحقائب من ثقب في الجدار نحو قاعة الانتظار، وتزاحم القادمون على أمتعتهم، وبعد جهد جهيد وانتظار قارب ساعتين من الزّمن استلمنا أمتعتنا وخرجنا إلى حيث استأجرنا سيّارة أجرة لتقلّنا إلى فندق (الأنتركنتيننتل) شماليّ العاصمة كابل.

من المطار إلى الفندق لم ألحظ أيّ دمار ملفت للانتباه، وقلت في نفسي من أين كانت وسائل الإعلام تحصل على تلك الصّور التّي تبثّها عن المباني المدمّرة والأحياء التّي تحوّلت إلى أطلال..؟ ولم أدرك الحقيقة إلا بعد أيّام عندما تجولتُ في الأحياء الغربية للعاصمة كابل، حيث الدّمار الهائل الذّي خلفته الحرب الأهلية هناك، كما شاهدتُ بعد ذلك في أطراف كابل عددا كبيرا من المباني التّي تحولت إلى ركام بعد أن سوّتها الطّائرات الأمريكية بالأرض في الأسابيع الأخيرة لحكم حركة طالبان.

فندق الأنتركونتيننتل الذّي تأسّس عام 1969 كان أسوأ مما توقعتُ، وكنتُ قد سمعتُ عن "رَدَاءَته" من الزّملاء الذّين زاروا أفغانستان قبلي فلم أصدّق ذلك، وظننتُ أن ذلك الاسم الكبير لا بدّ أن يحافظ على قدر من "الفخامة والعزّ" العتيق.

أسعار الفندق كانت عالية مقارنة بخدماته الأقلّ من عادية، فليلة واحدة في غرفة مفردة كانت تكلّف 63 دولارا دون وجبات طعام، وأسعار الوجبات في مطعم الفندق كانت عالية إلى حدّ كبيرا، حيث أكلنا في اليوم الأول طعاما بسيطا بخمسة وعشرين دولارا، لكنّنا في اليوم التّالي أكلنا

أحسن منه بكثير في مطعم "ماركو بولو" بوسط المدينة ودفعنا 11 دولارا فقط.

و "ماركو بولو" هذا الذّي سُمِّيَ المطعم باسمه رحّالة إيطاليّ عاش في القرون الوسطى، وزار أواسط آسيا وأفغانستان ودوّن أخبار رحلته في كتاب صار مرجعا لمعرفة أحوال تلك البلاد في ذلك الزّمن.

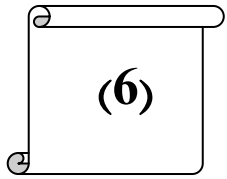

قاعدة (بجرام) الأمريكية

بعد سقوط حكم طالبان، ولمدّة قاربت السّنة، ظلّت القوّات الأمريكيّة في أفغانستان تعقد مؤتمرا صحفيّا يوميّا في قاعدة (بجرام) العسكريّة الجويّة شمال العاصمة كابل.

كان المتحدّث باسم القوّات الأمريكية يتلو بيانا أمام ممثّلي وسائل الإعلام يسرد من خلاله ما يقول إنّها عمليات نفّذتها قوّاته ضد "العدوّ" وهجمات تعرّضت لها، ويفصّل ويستطرد، بشكل ملفت للنّظر، خلال حديثه عن قائمة الخدمات الإنسانية التي تقول القوّات الأمريكية إنّها تقدّمها للشّعب الأفغانيّ في هذه المنطقة أو تلك.

المسافة من كابل حتّى قاعدة (بجرام)، التّي تقع في ولاية بَرْوَان (شمال كابل)، في حدود الخمسين كيلومترا، والطّريق كان جميلا إلى حدّ كبير حيث تنتشر حوله أشجار العنب والتّفاح، ولا يعكّر صفو الرّحلة إلاّ حجم الدّمار الذّي كان واضحا على عدد كبير من القرى التّي دُمّرت مبانيها الطّينية بشكل شبه كامل في عهد طالبان، فالمنطقة كانت ميدان حرب بين طالبان وقوّات تحالف الشّمال أو الجبهة المتّحدة كما يسمّيها البعض.

الطّريق يقطع قرى ومناطق "شَكَرْدَرِه"، و "وسَرَاي خُوجَه"، و "قَرَابَاغ" وتظهر من بعيد على جهة اليسار أطلال سوق "اسْتَالف" الذّي دمّرته حركة طالبان بالكامل بعد مواجهات حدثت في المنطقة بينها وبين مناوئيها.

الحراسة كانت مشّددة للغاية عند القاعدة الأمريكيّة، والقوم حريصون على أن لا يتركوا أيّ مجال للخطأ أو المفاجأة، وهكذا قبل وصولنا إلى البوّابة الأولى استوقفنا شابّ أفغاني أدركنا أنّه من رجال الأمن السرّي، ثمّ فتّشت نقطةُ الحراسة الأفغانية سيّارتنا لنصل بعد مسافة عدّة مئات من الأمتار إلى بوّابة أمريكية حيث يقف عدد من الجنود المدجّجين بالسّلاح كأنّهم في خطّ النّار الأوّل، وحولهم تنتشر المتاريس والحواجز الإسمنتية والرّملية من كل حدب وصوب.

تمّ تفتيشنا بدقّة لنتحرّك بسيّارتنا إلى نقطة أخرى أكثر حراسة وهناك تركنا السّيّارة حسب الأوامر، ووضعنا أجهزتنا وهواتفنا وكلّ ما معنا لتُفتّش عن طريق الكلاب المدرّبة، وبعد طول انتظار تمّ نقلنا، مع عدد من الصّحفيين، إلى الدّاخل على متن سيارّة تقودها جنديّة أمريكيّة.

حضرنا المؤتمر الصّحفي لمتحدّث قال إنّه النّاطق باسم التّحالف الدّولي لمكافحة الإرهاب، وكان البيان الذّي تلاه عبارة عن عمليات ملاحقة وتفتيش ودهم في عدد من الولايات الأفغانية قال إنّ القوّات الأمريكية أنجزتها في اليوم الذّي مضى.

بعد المؤتمر الصّحفيّ انتقلنا في نفس السّيارة الأمريكيّة إلى حيث يقع مكتب العلاقات العامّة في القاعدة العسكريّة للحصول على بطاقات صحفيّة خاصّة بالقوّات الأمريكية.

ولأنّ المكتب لم يكن جاهزا، أو أنّ شيئا ما في تلك الجهة كان من قبيل "الأسرار العسكرية" ويحتاج إلى بعض الوقت لتحويله أو تغطيته؛ فقد

طلبوا منّا الانتظار في حاوية حديديّة فارغة، فدخلنا وكان عددنا يتجاوز العشرين صحفيّا، ودخل معنا قرابة العشرين جنديا أمريكيّا في جوّ حارّ تضايقنا منه كثيرا.

استمرّ انتظارنا أكثر من نصف ساعة عانينا خلالها من حرارة الجوّ وتصبّبِ العرق بغزارة، ولم يكن الجنود الأمريكيون الذّين معنا أحسن حالا منا، فقد كانت ملابسهم العسكريّة وأسلحتهم وملحقاتها تضاعف لهم حرارة الجوّ وكميّات العرق المتصبّب.

الشّعور الذّي لازمني، وأنا أغادر إلى كابل بعد هذه الزّيارة الأولى إلى قاعدة (بجرام)، هو أنّ القوات الأمريكيّة لن تتورّع في استعمال أقسى أنواع التّعذيب ضدّ السّجناء والأسرى الذّين لديها، ولمَا لا وقد عُوملنا بهذه القسوة ونحن مجرّد صحفيّين "لا جمل لنا ولا ناقة" في كلّ ما حدث ويحدث للأمريكيين في أفغانستان وغيرها.

وقد سمعتُ لاحقا عن أصناف التّعذيب التّي يتعرّض لها السّجناء العرب والأفغان في القواعد الأمريكيّة في (بجرام) وقندهار، حيث حدّثني أحد قادة طالبان المفرج عنهم، وكنّا في طريق عودتنا من قندهار، عن التّعذيب الذّي رآه وسمع عنه في قاعدة (بجرام) الجويّة ولعلّ أخفّه، حسب حديث القائد الطّالبانيّ، المنع من النوم لفترات طويلة، وأغربه تكليف السّجين بتنظيف إحدى القاعات الكبيرة بفرشاة أسنان..!

كما التقيتُ لاحقا في كابل بأربعة عراقيين شيعة أفرجت عنهم القوّات الأمريكية من قاعدة (بجرام)، وكانوا قد اعتقلوا في مناطق متفرّقة من باكستان في الفترة التّي تلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر، حيث كان الهمّ الأكبر فيها للأمريكيين هو اعتقال واختطاف أكبر عدد ممكن من العرب المشتبه فيهم حتى لو كانوا من المسلمين الشّيعة الذّين يعرف

القاصي والدّاني استحالة وجود أيّ علاقة لهم بتنظيم القاعدة؛ فالشّيعة والقاعدة نقيضان يصعب أن يلتقيا ولو على مصالح وخطط وبرامج آنية.

وقد حدّثني هؤلاء المفرج عنهم عن أصناف التّعذيب التّي تعرّضوا لها في الأشهر الأولى لاعتقالهم قبل أن يتعرّف المحقّقون الأمريكيون على حقيقة هويتهم، ويتأكّدوا أنّ فرضيّة علاقتهم بالقاعدة من "إبداعات" الخيال الخصب الذّي يتميّز به بعض رجال الاستخبارات الأمريكية لا أكثر ولا أقلّ.

وبعد عام من الرّحلات اليوميّة التّي كانت الطّواقم الصّحفية تقوم بها إلى (بجرام) قرّرت القوّات الأمريكيّة نقل المؤتمر الصّحفي اليوميّ إلى إحدى الثّكنات الأمريكية في العاصمة كابل، وقُلّص عدد المؤتمرات إلى مرّتين في الأسبوع إضافة إلى المناسبات والمؤتمرات الصّحفية لكبار الشّخصيات الأمريكية التّي تزور العاصمة كابل.

وقد كان طاقم التّصوير في مكتب قناة الجزيرة بكابل يحضر المؤتمرات الصّحفية الروتينيّة للمتحدّث الأمريكي في كابل بشكل مستمرّ، وكنتُ أرافق الطّاقم وأحضر المؤتمر الصّحفي خاصّة عندما يتزامن مع أحداث وتطوّرات ميدانيّة قد تجعل المتحدّث الأمريكي يقول شيئا ذا قيمة.

وإضافة إلى طاقم الجزيرة ووكالات الأسوشييتد برس ورويترز و"الفرنسية" كان يحضر المؤتمر الصّحفي جمع من الصّحفيين الأفغان من مندوبي الصّحف والمجلاّت والإذاعات التّي تكاثرت بشكل كبير في عهد حكومة الرّئيس حامد كارزي، وتنوّعت مشاربها وولاءاتها ولغاتها واتجاهاتها ومصادر تمويلها.

وكنتُ أعتقد في البداية أنّ هذا "الجيش" من الصّحفيين الأفغان يحضر المؤتمر الصّحفي "لوجه الله" ولتغطية أخبار القوّات الأمريكية فهي

جزء من المشهد العامّ في أفغانستان، بل تمثّل العنصر الأكثر حسما وتأثيرا في مجريات الشّأن الأفغاني.

وتأخرتُ مرة بعد المؤتمر الصّحفيّ في انتظار أحد موظفي العلاقات العامة لتجديد بطاقتي الصّحفية، فسمعتُ صحفيا أفغانيا يطلب من زميله المغادرة معه، فاستمهله الأخير قليلا حتّى يستلم راتبه من المكتب الصّحفيّ للقوّات الأمريكية، فأدركتُ لاحقا وبعد التّحري والاستقصاء أنّ الكثير من الصّحفيين الأفغان الذّين يحرصون على حضور المؤتمر الصّحفي الأمريكي يستلمون رواتب منتظمة، أو مساعدات مالية على الأقلّ، من القوّات الأمريكية لتنشر صحفُهم ومجلاّتهم وإذاعاتهم كلام المتحدّث العسكريّ الأمريكي وبياناته الدّعائية التّي تحاول جاهدة إضفاء صورة "المخلّص" على الجنديّ الأمريكيّ في أفغانستان.

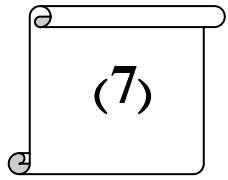

أول صحفيّة جزائريّة في كابل

بعد أيام من افتتاح مكتب الجزيرة في كابل اتّصل بنا السّفير الجزائريّ في العاصمة الباكستانية إسلام آباد ليخبرنا أنّ صحفيّة جزائريّة ستصل إلى كابل خلال أيّام، وطلب منّا، بشكل شخصيّ طبعا، استقبالها في المطار ومساعدتها في إنجاز ما جاءت من أجله، فهي كأيّ صحفيّ جديد، أو زائر يدخل أفغانستان أوّل مرّة، لا تعرف إلا القليل عن البلاد وأوضاعها وظروف وملابسات العمل فيها.

تحركتُ إلى مطار كابل الدّولي قبل موعد وصول طائرة الخطوط الجوية الباكستانية القادمة من إسلام آباد، ووقفتُ أمام بوّابة القادمين رفقة "محمّد آغا" سائق سيّارة مكتب الجزيرة.

حطّت الطائرةُ على أرضيّة المطار وبعد فترة بدأ الأفغان وبعض الأجانب يخرجون، بينما كنت أراقب الوجوه النّسائية من بينهم لعلّي أتعرّف على الصّحفية الجزائرية على اعتبار أنّ الملامح الجزائرية مميّزة عن غيرها بشكل أو بآخر، أو هكذا كنت أتصوّر.

وبعد فترة من الانتظار هدأت حركة الخروج من بوّابة القادمين ولم يبق سوى بعض المتأخّرين بسبب تعطّل إجراءات دخولهم لسبب ما، ومع ذلك لم ألحظ أيّ شكل جزائري.

ولما هممتُ بالعودة إلى المكتب، على اعتبار أنّ الزّميلة الصحفية لم تكن في هذه الرّحلة، جاءني السائق مسرعا ليخبرني أنّ امرأة عند البوّابة الخارجية للمطار تبدو غريبة الشّكل وتتحدّث الآن مع أحد عناصر الشّرطة وتسأل عن عنوان أو وجهة معيّنة في كابل.

انتقلتُ إلى حيث أخبرني السّائق وتحدثتُ مع تلك المرأة، ودون عناء كبير بطبيعة الحال، عرفتُ أنّها الصّحفية الجزائرية حيث مرّت أمامي ولم أنتبه إليها، فقد كانت "أستاذة في فنّ التّمويه" حيث ارتدت لباسا باكستانيا من النّوع الذّي يسمى "شروال قميص" ووضعت على رأسها خمارا وأظهرت بعضا من شعرها على عادة كثيرا من النّساء الباكستانيات، وقد عرفتُ لاحقا من أحد الأصدقاء الذّين قابلوها في باكستان أنّ البعض هناك صوّر لها الوضع في كابل وكأنّ حكومة طالبان ما زالت قائمة، فخافت وارتدت لباسا محتشما على الطّريقة الباكستانية.

ركبنا سيّارة مكتب الجزيرة معا، وعرفتُ أنّها موفدة من طرف صحيفة جزائرية مشهورة ناطقة بالفرنسية لإعداد تقارير وإجراء حوارات في كلّ من باكستان وأفغانستان، ومع أنّها وصلت في "الوقت الإضافي"، حيث مرّ على سقوط دولة طالبان أكثر من عشرة أشهر، فقد ثمّنتُ، بيني وبين نفسي، هذه الخطوة التّي أقدمت عليها الصحفيّة وإدارة جريدتها حيث سجّلوا حضورا صحفيا جزائريا، ولو متأخرا، في قضيّة كانت ولا زالت تأخذ حيّزا كبيرا من الاهتمام والمتابعة في مختلف وسائل الإعلام الدّولية.

استرحنا بعض الوقت في مكتب الجزيرة الذّي لم يكن بعيدا عن المطار، وبعد طعام الغداء أوصلنا الزّميلة الصّحفية إلى فندق الأنتركونتيننتل أين حجزت غرفة هناك، فقد كان الفندق هو الأفضل في كابل رغم تدنّي خدماته على جميع المستويات.

وفي اليوم التّالي لوصول الصّحفية اتجهنا معا بسيّارة الجزيرة إلى قاعدة (بجرام) الأمريكية، شمال العاصمة كابل، لحضور المؤتمر الصّحفي اليوميّ للمتحدّث باسم القوات الأمريكية، وكان لنا ما أردنا حيث وصلنا في الوقت المناسب واستمعنا إلى المتحدّث (روجر كينغ)، وكان من حسن حظّ الصّحفية الزّائرة أن تحدّث "كينغ" عن هجوم نفّذه مسلحون ضدّ القوات الأمريكية في ولاية خوست شرقيّ أفغانستان، وهو خبر مميّز بالنّسبة للمتحدّثين باسم القوات الأمريكية، ففي غالب الأحيان "يُصدِّعون" رؤوس الصّحفيين بأحاديث مكرّرة عن ملاحقات وانتصارات ومداهمات، وعن مشاريع وأعمال خيرية يقولون إنّ عناصر القوّات الأمريكية تقوم بها لصالح الشّعب الأفغاني.

وخلال الأيّام الثّلاثة التّي قضتها الزّميلة الصّحفية في كابل أجرت عددا من اللّقاءات الصحفيّة والتقطت الكثير من الصّور، وزرنا معا وزارة شؤون المرأة أو (وزارات أمور زَنَان) كما يُطلق عليها بالفارسيّة، وهي من الوزارات المهمّة في حكومة الرّئيس حامد كارزي حيث كان الأمل معقودا عليها لتحسين أوضاع المرأة الأفغانية التّي تعاني، خاصة في الأرياف والقرى، من الفقر والأميّة والاضطهاد.

في داخل وزارة شؤون المرأة التّي يُفترض أن تكون مثالا للتحرّر، أو هكذا كان يُراد لها، التقطت الصّحفية صورا لنساء أفغانيات يعملن في أقسام الوزارة ويرتدين "الشّادُور" الأفغانيّ التّقليديّ الذّي يغطّي كلّ جسد المرأة حتّى الوجه، حيث لا يمكنها النّظر إلا من خلال ثقوب صُمّمت بشكل لا يُمَكّن النّاظر من مشاهدة مقدار أنملة في وجه المرأة.

"الشّادُور" كان من إبداعات طالبان حسب ظنّ الصّحفية، لكنّ المترجم الذّي كان بصحبتنا شرح لها بإسهاب كيف أنّ هذا اللّباس يمثّل

الزّيّ التّقليديّ الرّئيسيّ للمرأة الأفغانية خاصة في القرى النّائية ولا علاقة له بطالبان، ولا أدلّ على ذلك من أنّه بقي بعد زوال حكمهم، لكنّهم شدّدوا على ارتدائه أيّام سيطرتهم على كابل وأغلب مناطق أفغانستان.

وخلال عودتنا مرّة من أحد اللّقاءات الصّحفية صعدنا لزيارة (تبّة نادر شاه)، وهي عبارة عن مرتفع يتوّسط الأحياء الجنوبية لمدينة كابل شُيّد على أحد أطرافه ضريح ملك أفغانستان الأسبق "نادر شاه" الذي اغتيل عام 1933، وهناك صوّرت الصّحفيةُ القبرَ الملكيّ وآثار رصاص الحرب الأهلية على الضريح، وفتح لنا الحارس الباب لنشاهد قبور بقيّة أفراد الأسرة المالكة؛ تلك الأسرة التي كان عام 1973 آخر عهدها بحكم أفغانستان.

خلال الزّيارة كانت الصّحفية تتحدّث مع المترجم عن الظّلم الذّي تتعرض له المرأة في أفغانستان ولا أدري كيف دارت دفّة الحديث لتطال المترجم وأسرته فذكر جانبا من حياته أذهل الصّحفية.

قال إنّ شقيقه استشهد في إحدى المعارك ضدّ القوّات السّوفيتية وترك زوجة دون أولاد، ولأنّ من المألوف وربما المرغوب فيه عند البشتون أن يتزوج الأخ أرملة أخيه، فقد اقترح الوالد أن يتزوّج صاحبنا هذا أرملة الشّهيد وكان حينها صبيا لم يتجاوز الرّابعة عشر من عمره بينما كانت العروس تفوقه بعامين.

التّفاصيل طويلة لكنّ خلاصة القصّة أنّه تزوّجها وهو طالب في المرحلة المتوسّطة، وأكمل الماجستير في اللّغة العربيّة قاطعا بذلك جميع المراحل الدّراسية ربّا لأسرة وصل عددها إلى تسعة أفراد عدا الأمّ والأب.

وكان مما سمعته من الصّحفية وهي تتحدّث عن أوضاع المرأة أنّ كلمة (عَوْرَت) أثارت انتباهها في أحد اللّقاءات الصّحفية التّي أجرتها في باكستان، وهذه الكلمة تطلق في اللّغة الأردية على المرأة وربما يعود أصلها

إلى العربيّة، وقالت إنّها سألت المترجم عن معنى الكلمة فأخبرها بذلك، فاستغربت واستنكرت هذه التّسمية معتبرة إطلاق كلمة عورة على المرأة ضرب من ضروب الإهانة والاحتقار.

وغادرت الصّحفية كابل وتتالت الأيام لأتذكّر مرّة كلمة (عَوْرَت) وقصة الصّحفية معها حين كنتُ أُعدّ تقريرا لبرنامج (مراسلو الجزيرة) في مناطق "البَاشَائِي" أو سكّان الجبال بولاية "كابيسا" وهناك عرفتُ أنّ المرأة في اللّغة الخاصّة بالقوم هي "عاجزة"، فالباكستانيون اعتبروها عورة والعورة قد تستر نفسها وتخرج، أما "العاجزة" فلا حول لها ولا قوّة، والمفارقة أنّ المرأة عند سكّان الجبال تقوم بجميع الأعمال تقريبا بدءا بالأعمال المنزلية وجمع الحطب وإحضار الماء من النّهر وحتى الزّراعة ورعي الأغنام والأبقار، فضلا عن الحمل والولادة والرّضاع.

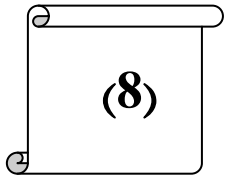

(8) الكاميرات... عقدة جنود شاه مسعود

واجهتنا مصاعب كثيرة أثناء أداء عملنا الصّحفي في العاصمة كابل وبقية مناطق أفغانستان، خاصّة النّائية التّي خاطرنا بالسّفر إليها لتغطية الأحداث التّي لا تكاد تنتهي حتّى تندلع من جديد.

وخلال مدّة العمل في أفغانستان كان أثقل شيء على نفسي هو مسلسل التّفتيش والإجراءات الأمنيّة المشدّدة التّي لا تستثني الصّحفيين، بل تشدّد عليهم أكثر من غيرهم في كثير من الأحيان.

القوّات الأمريكية كانت لا تكتفي بالتّفتيش عبر البوّابات الإلكترونية، فالصّحفي يدخل هذه البوابة بعد أن يترك ما بحوزته في مكان يحدّده الجنديّ الأمريكيّ، ثمّ يتعرض لتفتيش يدويّ، وفي حالات كثيرة يضطرّ الصّحفي للمرور عبر أكثر من نقطة تفتيش أمريكية، فضلا عن نقطة التفتيش الأفغانية التّي تكون في المقدّمة دائما لتتلقّى أيّ خطر محتمل، أمّا الأمتعة من كاميرات ومعدّات وأجهزة اتصال فتُجمع في مكان واحد لتفتّشها الكلاب المدرّبة، ثمّ يفتّشها بعد ذلك جنود أمريكيون بشكل يدويّ.

و كان أمر الكلاب هذا يقلقني لما نحمله في عاداتنا وثقافتنا من حساسية تجاه الكلاب، فكنتُ أضع هاتفي الجوّال في حقيبة الكاميرا التّي يحملها المصوّر حتّى لا يلمسه الكلب بلسانه، فإذا شككتُ أنّ الكلب قد لمس هاتفي أو قرّب رأسه منه؛ أقوم بعد ذلك بمسحه بمنديل ورقيّ، وقد

رآني أحد الجنود الأمريكيين مرّة أقوم بذلك، فاكتفى بأن ضحك، لا أدرى ساخرا أم مستجيبا لطرافة الموقف بالنّسبة له، فالكلب عندهم صديق حميم قد يشارك صاحبه طبق طعامه.

عناصر الجيش والشّرطة والأمن الذّين كانوا في صفوف تحالف الشّمال، خاصّة أهل وادي (بَنْشِير)، كانت لهم عقدة خاصّة من كاميرات التّصوير، فهي التّي قتلت قائدهم أحمد شاه مسعود كما سمعتهم يردّدون على مسامعنا، نحن الصّحفيين، مرات عديدة، ولهذا ترى أحدهم أثناء التّفتيش يجتهد في تفحّص الكاميرا، ويطلب من المصوّر أن يشغّلها ظنّا منه أنّها إذا اشتغلت تكون بعيدة عن مواطن الشّبهة، ولن تكون ملغّمة أو محشوّة بالمتفجّرات.

وعمليّة اغتيال القائد الطّاجيكي أحمد شاه مسعود تمّت بواسطة كاميرا تصوير كبيرة محشوّة بكميّة متفجّرات شديدة الانفجار، حسب رواية الزّميل محمّد صافي، مسؤول قسم المراسلين بالجزيرة سابقا، نقلا عن مسعود خليلي سفير أفغانستان السّابق في الهند الذّي كان إلى جانب مسعود خلال حادثة الاغتيال.

والقصّة، حسب الرّواية، بدأت عندما تقدّم عربيّان، عرّفا نفسيهما بأنّهما صحفيّان، بطلب لدخول المناطق الواقعة تحت سيطرة التّحالف الشّمالي والتّي تبدأ من مناطق "شمالي" المحاذية للحدود الّشمالية لولاية كابل.

العربيّان كانا في مناطق طالبان ولتسهيل المهمّة ودرء أيّ شبهات عنهما، توسّطا بالزّعيم الأفغانيّ عبد ربّ الرّسول سيّاف الذّي كان حليفا لأحمد شاه مسعود ومقيما معه في الشّمال بعد أن طردته حركة طالبان من مناطق نفوذه التقليديّة في منطقة "بَغْمَان" قرب العاصمة كابل.

والحجّة التّي ساقها هذان "الصحفيّان"، أو العربي الذّي توسط لهما عند سيّاف، هي أنّهما قاما بتغطية صحفية في مناطق طالبان، ولإظهار الصّورة الكاملة المتوازنة لأفغانستان لابدّ من معاينة الوضع الميداني على الجانب الآخر، والاستماع إلى قادة التّحالف الشّمالي.

دخل العربيّان إلى مناطق تحالف الشّمال وطلبا إجراء مقابلة صحفيّة مع مسعود، وظلاّ ينتظران موعد المقابلة معه، والرّجل يماطل ويماطل إمّا لمشاغله الكثيرة، وانشغاله بالحرب مع طالبان، أو لشكّه في أمر الرّجلين، فقد عُرف عنه الحذر الشّديد حيث قاتل عشرين عاما وسط بحر من الخصوم يحيطون به من كلّ الجهات ويطلب أكثرهم رأسه.. كان يحارب القوّات السوفيتية في الوقت الذّي ظلّ على خصومة شديدة مع القائد البشتونيّ القويّ قلب الدّين حكمتيار المدعوم من باكستان التّي لم يكن مسعود يخفي عداوته لها، كما لم يكن على وفاق تامّ حتى مع قادة الحزب الذّي ينتمي إليه وهو الجمعية الإسلامية بقيادة البروفيسور برهان الدّين ربّاني.

وفي ولاية "بَرْوَان" شمال العاصمة كابل وقف العربيّان مرّة على باب اجتماع كان يحضره كلّ من برهان الدّين رباني وعبد ربّ الرّسول سيّاف وأحمد شاه مسعود، وطلبا مقابلة الزّعماء الثّلاثة بحجّة تصويرهم مجتمعين، حتّى يراهم العالم متّحدين دحضًا للشّائعات الكثيرة التّي تدور حول الخلافات الدّائرة بينهم في الخفاء.

وكاد الأمر أنّ يتحقّق لهذين العربيّين لكنّ طلبهما رُفض في آخر لحظة، فأعادا التّركيز من جديد على مسعود الذّي كان محور تحالف الشّمال والقائد العسكريّ المحنّك الذّي كبّد مليشيات طالبان خسائر فادحة،

واستطاع الصّمود في وادي "بَنْشِير" لمدّة خمس سنوات رغم أنّ قوات طالبان تجاوزته إلى الشّمال، وصارت تحاصر الوادي من ثلاث جهات.

وبعد فترة من الانتظار وافق مسعود على إجراء المقابلة الصّحفية، وجلس إلى جانبه مسعود خليلي ليترجم الحوار، فقد كان أحد المقرّبين إليه، ووقف أحد العربيّين وراء الكاميرا، بينما بدأ الآخر يمثّل دور الصّحفيّ المحاور، ليرتفع فجأة صوت "المصّور" بالتّكبير، على حدّ رواية مسعود خليلي، وتنفجر الكاميرا التّي كانت موجّهة بشكل مباشر نحو مسعود على ما يبدو، فأصيب إصابات بالغة أدت إلى وفاته بعد يومين، حيث أُعلن عن الوفاة رسميّا في التّاسع من سبتمبر 2001 أي قبل يومين فقط من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وفقد "خليلي" إحدى عينيه، أمّا العربيّان فقد توفّي "المصوّر" على الفور، وجُرح المحاور فنُقل إلى السّجن، ومن هناك استطاع الفرار فلاحقه أحد الحرّاس وأطلق عليه النّار، فمات على الفور لتموت حقيقة القصّة معه.

واتفاق قتل مسعود مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لم يكن مصادفة حسب ما يرى بعض الخبراء بالشّأن الأفغاني، فالقاعدة على ما يبدو هي المسؤولة عن مقتل مسعود، وربما كانت الخطّة تقتضي قتل مسعود قبل موعد هجمات سبتمبر بأكثر من شهر لكنّ مسعود ماطل في قبول إجراء المقابلة.

وعندما يُقتل مسعود، حسب تخطيط القاعدة، يمكن القضاء التّام على التّحالف الشّماليّ، والاستيلاء على مساحة الأرض التّي يسيطر عليها، وبالتّالي تُحكِم طالبان سيطرتها على جميع مناطق أفغانستان وحدودها مع الدّول المجاورة، حتّى إذا تمّ تنفيذ الهجمات على الولايات المتحّدة الأمريكية تجد الأخيرة صعوبة في غزو أفغانستان، فلن تكون هناك قطعة أرض تدخل من خلالها وتقاتل طالبان وجها لوجه.

ولكنّ "حسابات الحقل غير حسابات البندر" كما يقول المثل، ولن تجري الرّياح دائما بما تشتهي السفن، فقد كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بداية النّهاية لحكم طالبان؛ فالغضب الأمريكيّ بعد هجمات نيويورك وواشنطن كان أكثر بكثير مما قدّره تنظيم القاعدة وقيادات طالبان.

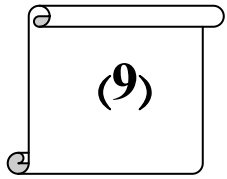

(9) مرقد آخر للإمام علي..

في الأيّام الأخيرة من شهر أكتوبر 2002 نشبت مناوشات مسلّحة في إحدى مناطق ولاية بلخ بشمال أفغانستان، تلك الولاية المشهورة بعاصمتها مدينة مزار شريف؛ فعزمنا على التّحرك لاستطلاع الأمر وتغطّية أيّ تطورات محتملة للأحداث.

كانت الطّريق طويلة بين كابل ومدينة مزار شريف، حيث يتمّ قطع المسافة في الأحوال العادية خلال ثماني ساعات على الأقلّ، وتمرّ الطّريق عبر مرتفعات "سالانج Salang الشّاهقة والوعرة، وتُصنّف بذلك كأعلى ممرّ جبليّ في العالم.

خرجنا من كابل بعد منتصف النّهار لنسير قرابة السّاعة ونصف، ونبدأ بعد ذلك الصّعود عبر الطّريق الجبلية المؤدية إلى نفق سالانج الذّي يبلغ طوله ثلاثة كيلومترات، ويربط شمال أفغانستان بجنوبها.

كانت أعمال التّرميم جارية داخل النفق، وموسم الثّلج لم يحن بعد، ومع ذلك صَاحَبَنَا القلقُ والخوفُ ونحن نجتاز الكيلومترات الثّلاثة داخل النّفق، ففي أحيان كثيرة تحدث اختناقات مرورية في الوسط، ويتعرّض المسافرون والسّائقون للاختناق، ويموت البعض نتيجة ذلك، فوسائل التّهوية وحتى الإضاءة متدنيّة داخل النّفق، إن لم تكن معدومة.

جلسنا لنستريح قليلا بعد النّفق في مساحة صغيرة تمثل أعالي مرتفعات سالانج، حيث كان الجوّ باردا جدا، وكذلك الماء الذّي يسيل من عيون تغذّيها الثّلوج الذّائبة، فهناك قمم جبلية شاهقة تحتفظ بالثّلج طوال العام.

لم نكن نشعر بالخوف كما هو الحال في أسفارنا جهة الجنوب، فالشّمال الأفغانيّ عُرف عنه الأمن والأمان النّسبيّ. ومع أنّ تقدير السّائق للطّريق يشير إلى أنّنا سنصل قرابة منتصف اللّيل؛ فقد قرّرنا مواصلة السّير إلى أن وصلنا مدينة مزار وقضينا ما بقي من اللّيل فيها.

في الصّباح تحرّكنا مبكرا إلى مقرّ (قُولُو أُرْدُو) وهو الفيلق العسكريّ بالمنطقة، حيث قابلنا الجنرال عطاء محمد القائد الجهاديّ السّابق ضد القوات السوفيتية وأحد أبرز المناوئين لحركة طالبان أيّام سيطرتها على معظم أراضي أفغانستان، ولاحقا أجرينا معه لقاء مصورا تناول الأحداث الأخيرة في وُلُسْوَالِي (بلدية) شُولْجَرَه Sholgara التّي جئنا من أجل متابعة أحداثها، وتحدّث إلينا أيضا عن تطوّرات علاقته المتوتّرة مع خصمه التّقليديّ في المنطقة الجنرال الأوزبكيّ عبد الرّشيد دوستم.

في اليوم التّاليّ خرجنا مبكّرين بعض الشّيء وعرّجنا في أوّل تحركّاتنا على مزار الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وهو مزار كبير يشدّ النّاظر بقبابه وزخرفته الإسلاميّة العريقة.

وهذا المزار هو المَعْلم الرّئيسيّ لمدينة مزار شريف، وأينما يذهب الزّائر في المدينة يسمع الأهالي وهم يؤكّدون حكاية المزار الذّي حملت المدينة اسمه بعد اكتشاف أسلافهم قبر الإمام عليّ على أحد التّلال كما يزعمون.

ويردّد الأفغان روايات مختلفة عن هذا الاكتشاف، فالبعض يقول إنّ أحد الملوك الأفغان رأى في منامه الإمام عليّ رضي الله عنه وأخبره بالمكان المدفون فيه، وبعضهم الآخر يقول إنّ الأفغان عثروا على لوحة حجريّة وعليها كتابات تعود للإمام جعفر الصّادق أوصى فيها أبا مسلم الخراساني بنقل جثمان الإمام علي إلى بلخ بشمال أفغانستان.

ومع أنّ الكثير من الأفغان المتعلّمين والمدركين جيدا لمسلّمات التّاريخ والجغرافيا يرفضون ما يُشاع عن وجود جثمان الإمام عليّ في المزار؛ فإن هناك من الأكاديميّين الأفغان من يورد سياقا كاملا في هذا الشّأن، فالإمام عليّ، حسب هؤلاء، عندما جُرح في الثّامن عشر من رمضان عام 40 هجرية على يد عبد الرحمن بن ملجم أوصى ولديه الحسن والحسين بدفنه سرّا في حال وفاته، وقد فعلا ذلك عندما توفيّ بعد ثلاثة أيّام.

وبقي الأمر سرّا حتّى عام 118 هجرية عندما رحل أبو مسلم الخراسانيّ إلى مكّة للحجّ وبقي هناك أربع سنوات تفرّغ خلالها لتعلّم اللّغة العربيّة. وأثناء وجوده هناك التقى أبو مسلم الإمام جعفر الصّادق فحمّله أمانة نقل جثمان الإمام عليّ من النّجف بالعراق إلى مكان ما في أفغانستان للحفاظ عليه.

وقد أدّى أبو مسلم الخراسانيّ الأمانة على أكمل وجه حيث نقل الجثمان ليلا بمساعدة عدد من فرسانه وتمّ دفنه قرب قرية بلخ شماليّ أفغانستان، وبقي الأمر سرّا حتى عام 530 هجرية عندما أمر أحد السّلاطين السّلاجقة ببناء مرقد صغير حول القبر. ثمّ عاد الأفغان وأخفوا الجثمان من جديد عندما غزا جنكيز خان المغوليّ البلاد، وبقي مكان الدّفن سرّيا من 532 إلى 885 هجرية عندما رأى أحد سلاطين أفغانستان الإمام عليّ في المنام وطلب منه أن يبني له قبرا وحدّد له المكان، فأرسل السّلطان

وزيره وعددا كبيرا من المشايخ إلى المكان فعثروا هناك على لوحة حجرية مكتوب عليها "هذا وليّ الله عليّ أسد الله وأخو رسول الله"، فبُني المرقد الحاليّ في ذلك المكان.

وإذا كان من الصّعوبة بمكان تصديق هذه القصص جملة وتفصيلا؛ فإنّ المؤكد، أنّ المزار صار، كغيره من المزارات المشهورة في العالم الإسلامي، مكانا خصبا لجمع الأموال الطّائلة باسم الدّين من أولئك البسطاء والمساكين الذّين يزورون "الإمام عليّ" للبركة والشّفاء من الأسقام وقضاء الحوائج.

بعد خروجنا من المزار حاولنا مقابلة الجنرال عبد الرّشيد دوستم عبر مكتبه في مدينة مزار شريف، وقد كان يشغل حينها منصب نائب وزير الدّفاع الأفغانيّ مع أنّ إقامته الدّائمة ظلّت في الشّمال بين قومه الأوزبك ومليشياته المشهورة.

وباءت محاولاتنا بالفشل فالرّجل يرفض في أغلب الأحيان التّحدّث المباشر مع وسائل الإعلام خاصة الجزيرة التّي يصنفها هو والمتحدّثون باسمه كوسيلة إعلامية معادية أو غير ودّية معه على الأقلّ، وكانت حجّة الذّين تحدثوا إلينا أنّ دوستم خارج مدينة مزار وأنّنا في حاجة إلى موعد مسبق للقائه.

وعبر اتصالات هاتفية عرفنا أنّ الرجل في مدينة شَبَرْغَان التّي تحتاج إلى ساعتين من الزّمن للوصول إليها، فانطلقنا بعد الظّهر بأقصى سرعة ممكنة، لنتمكّن من العودة إلى مدينة مزار في نفس اليوم.

وصلنا إلى شبرغان وبحثنا عن مقرّ "جنبش مّلي إسلامي أفغانستان" وهو اسم حزب دوستم ويعني الحركة الوطنية الإسلامية الأفغانية، وحاولنا الحصول على أيّ معلومات عن دوستم أو إجراء أيّ مقابلات مع مسؤولين

آخرين، لكنّ القائمين على الأمر اعتذروا بلطف ولباقة بعد أن عرفوا أنّنا من الجزيرة.

في الصّباح التّالي تحرّكنا إلى مديرية شلجره التّي حدثت فيها مشادّات بين أطراف مؤيّدة لدوستم وأخرى مؤيّدة للجنرال عطاء محمد، لنصلها بعد أربع ساعات شاقّة من السّير المتواصل، فالطّريق وعرة وغير ممهّدة تماما.

التقطنا صورا لسوق شلجره، وصوّرنا مقرّ البلديّة وتحدثّنا إلى بعض المسؤولين، ثمّ اضطررنا إلى مغادرة المنطقة مسرعين حين أدركنا أنّ مجموعة مسلّحة، كانت تتجوّل في الّسوق، تتابع تحرّكاتنا بنظرات غير ودّية.

وصلنا إلى مدينة مزار شريف ليلا، لنغادرها عند الصّباح الباكر رغبة في الوصول إلى كابل قبل حلول اللّيل لنتمكّن من بثّ الصّور الخاصّة التّي التقطناها من شلجره، فقد كنّا أوّل فريق صحفيّ يصل إلى منطقة الاشتباكات تلك.

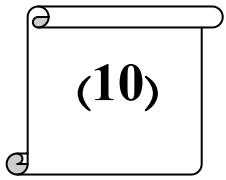

(10) العرب الجدد في أفغانستان

عندما دخلت القوّات الأمريكية وعناصر تحالف الشّمال إلى العاصمة الأفغانية كابل نهاية عام ألفين وواحد تعرّض من تمّ القبض عليهم من "العرب الأفغان" للتّنكيل والإهانة والقتل، أو السّجن في أحسن الأحوال.

وقد استغلّ بعض قادة الحرب الأفغان تلهّف القوّات الأمريكية للقبض على أيّ عربيّ في تلك الفترة؛ فاعتقلوا عربا كانوا يعملون لصالح مؤسّسات إغاثية وتعليمية وسلّموهم للقوات الأمريكية مقابل مبالغ طائلة، حيث كانت هذه القوّات تعلن من حين لآخر أنهّا ألقت القبض على أعداد من المقاتلين التّابعين للقاعدة.

ولأنّ العرب من أتباع القاعدة وأنصار طالبان كانوا في الخطوط الأولى للقتال ضدّ قوات التّحالف الشّماليّ قرب العاصمة كابل، كما كانوا مع أواخر الصّامدين من طالبان في مدينة قندهار جنوبيّ أفغانستان؛ فقد حملت لهم مليشيات تحالف الشّمال حقدا كبيرا تحوّل إلى نوع من الحساسية الشّديدة ضدّ كلّ ما هو عربيّ.

وعندما وصلنا إلى كابل في شهر أوت / أغسطس من عام ألفين واثنين كانت الحساسية تجاه العرب لا تزال ظاهرة خاصّة عند (البنشيريين)، الذّين ينحدرون من وادي بنشير معقل القائد الطاجيكيّ أحمد شاه مسعود، الذّي اغتاله، حسب أنصاره، عربيّان من القاعدة أدّعيا أنّهما صحفيّان.

وعلى الرّغم من أنّ المخاطر خلال الأيّام والأسابيع الأولى التّي تلت سقوط طالبان كانت كبيرة؛ وصل عدد من اللّبنانيين إلى كابل بعد دخول القوّات الأمريكية إلى أفغانستان بوقت قصير، إلى جانب دخول صحفيين يعملون لحساب عدة فضائيات ووسائل إعلام عربية.

هؤلاء اللبنانيون كانوا تجارا يعيشون في دولة أفريقية ويدركون جيدا، من خلال تجاربهم السّابقة في أفريقيا، حاجة القوّات الدولية والمؤسسات الأجنبية للدّعم اللوجستيّ في مثل حالة أفغانستان، ولهذا افتتحوا مكاتب في العاصمة كابل، واستأجروا مخازن كبيرة وبدؤوا التّعامل مع القوّات الأمريكية والدّولية ومختلف المؤسّسات الأجنبية، حيث كانوا يوفّرون ما تريده هذه الجهات من الّسوق المحلية أو دولة باكستان المجاورة، أو من مدينة دبي عبر طائرات شحن روسية مستأجرة تطير كلّما دعت الحاجة.

وكان السّبب وراء نجاح هؤلاء اللبنانيين، الذّين زاد عددهم بعد ذلك، هو طبيعة القوّات والمؤسّسات الأجنبية من جهة، وظروف وطبيعة ما يمكن تسميته بمؤسّسات ورجال أعمال أفغانستان في تلك الفترة.

فهذه القّوات والمؤسّسات تريد مواد وتجهيزات وخدمات بمستوى معين ووقت محدد وربّما قياسيّ أيضا، والأفغان في ذلك الوقت لم تكن لهم الخبرة والجاهزية الكافية، ولم يتعوّدوا على احترام الوقت، ويصعب عليهم استيعاب ما يمكن تسميته بـ "صفقات المغامرة"، فقد عوّدتهم عقود الحرب أن يسلّموا ويقبضوا مباشرة، فمن يضمن للتّاجر أو البائع أنّ الوضع سيستمرّ على حاله إلى الغد.

أمّا القوآت والمؤسّسات الأجنبية فقد كانت تطلب السّلع أو التّجهيزات أوّلا، ثم تدفع لاحقا بعد الاستلام بوقت قد يطول أحيانا.

وإلى جانب التّجار اللّبنانيين دخل عدد آخر من العرب كانوا يعملون مع مؤسّسات الأمم المتّحدة، منهم مجموعة من الأطبّاء يتبعون منظّمة الصّحة العالمية، وآخرون كانوا مع مكاتب الأمم المتّحدة الأخرى ينتمون لعدة جنسيات عربية، وبينهم جزائريون.

وفي عام 2003 وصل عدد من القضاة من مصر والمغرب وتونس يعملون لصالح مؤسّسة إيطالية تهتمّ بالقانون، وتنفّذ برنامجا تدريبيّا طويل الأمد نسبيا يستهدف القضاة ورجال القانون الأفغان.

وظلّ عدد العرب محدودا إلى أن دخلت شركة إنشاءات "مصرية أمريكية" بقوّة إلى ميدان الإعمار في أفغانستان واستلمت مشاريع كبيرة وبدأت ببناء مرافق وثكنات للجيش الأفغاني الجديد، لكنّها بتمويل أمريكيّ بطبيعة الحال.

بدأت هذه الشركة بأقل من عشرة مهندسين مصريين ليزداد العدد تدريجيا ويصل إلى قرابة الألف مصريّ بين مهندس وعامل فنيّ وحتّى طبّاخين وعمال بسطاء، حيث أعدّت لهم الشّركة مساكن جماعية في عدد من أحياء العاصمة كابل.

ولأنّ عددا من هؤلاء العمّال البسطاء كانوا من "الصّعايدة" فقد حدث مرّة أن احتاج بعضهم إلى الخبز في وقت متأخّر بعد العشاء، وظنّوا ببساطة شديدة أنّ الأمر عاديّ وحسبوا أنفسهم في القاهرة أو إحدى المدن المصرية، فخرجوا لشراء الخبز وهم يرتدون القمصان أو الجلاّبيات المصريّة، فاعتقلتهم دوريّة شرطة، لكنّها أفرجت عنهم في الصّباح عندما تأكّدت من هويتهم وعرفت الجهة التّي يعملون لديها.

ورغم تزايد أعداد المصريّين فقد ظلّت القاهرة محجمة عن فتح سفارة أو حتّى قنصلية لها في أفغانستان، وظلّت تتابع الوضع من خلال سفارتها في العاصمة الباكستانية إسلام آباد.

وفجأة سمعنا في مكتب الجزيرة بكابل أنّ قنصلا مصريا وصل إلى كابل، ثم التقينا به فعلا في إحدى المناسبات العامّة، وكان شابّا لطيفا ومهذّبا ومتحمّسا، كما بدا من حديثه، للعمل في أفغانستان.

وبعد أيّام فتحت القنصلية المصرية أبوابها في كابل، وكان أغلب ظنّي وظنّ الصحفيين الذّين تحدّثت معهم أنّ الأمر مجرّد خطوة مصرية عاديّة، خاصّة أنّ لأفغانستان سفارة نشطة في القاهرة.

لكنّ الأمر كان غير ذلك تماما، حيث عرفت بعد فترة أنّ وراء فتح السّفارة سببا أمنيا بحتا كما شرح لي صحفيّ صديق على علاقة بالدبلوماسيين المصريّين.

فعدد كبير من المهندسين المصريين الذّين يعملون لصالح شركة الإنشاءات المصرية الأمريكية من الأقباط، وكانت جوازات سفرهم تظلّ بحوزتهم أثناء وجودهم في أفغانستان، وحدث أن فُقدت جوازات ثلاثة منهم، فتحرّك الهاجس الأمنيّ لدى الحكومة المصرية؛ فماذا لو استعمل مناهضون للحكومة المصرية جوازات هؤلاء..؟ خاصّة أنّ أسماءهم مسيحية ولا أحد سيشكّ فيهم وهم يدخلون مصر "آمنين".

وبعد افتتاح القنصلية صدر قرار حازم يُلزم كلّ مصريّ في أفغانستان بتسليم جواز سفره للقنصلية بعد وصوله إلى كابل مباشرة ويستلم نسخة عنه مصدّقة من قبل المصالح القنصلية.

ومن أغرب وأجرأ من وجدت من العرب في كابل شابّا ووالده الذّي تجاوز السّتين عاما، جاءا من سوريا للتّجارة في أمعاء البقر والمواشي، حيث يتمّ شراؤها بأثمان مناسبة جدا، وتُجهّز بشكل أوّليّ ثمّ تُشحن إلى الإمارات العربية المتّحدة لتصل من هناك إلى لبنان ويتمّ تصنيعها وتصدّر بعد ذلك إلى ألمانيا.

سألتُ الشيخ عن فكرة قدومه وسرّ مغامرته، فعرفت أنّه مارس نفس هذه التجارة في أفغانستان خلال العهد الملكيّ، أي قبل عام ثلاثة وسبعين من القرن الماضي، ولمّا ساءت أحوال البلاد انقطع لأكثر من ثلاثين عاما ليعود مجدّدا بعد أن بدأت البلاد تتعافى من محنتها.

وغادرتُ أفغانستان آخر مرة في منتصف عام 2004، وسمعتُ من بعض الزّملاء أنّ عدد العرب ظلّ في تزايد مستمرّ، وأنّ الحساسية منهم قد اقتربت من التّلاشي التّام، ولما لا تتلاشى نهائيا ومدينة دبي صارت وجهة محبّبة للأفغان يقصدها الجميع، سياسيون، ورجال أعمال، وتجّار وعمال وكلّ من توفّرت لهم إمكانيات السّفر والسّياحة.

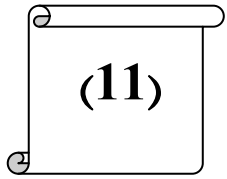

الجزيرة وأفغانستان

زارنا بمكتب الجزيرة في كابل شابّ أفغانيّ اسمه مازن يتحدّث العربية بطلاقة وبلهجة مصرية، وبعد حديث قصير معه عرفتُ أنّه ينحدر من أب أفغانيّ وأمّ مصرية، وقد ولد في المملكة العربيّة السّعودية وعاش في مصر، ولم تطأ قدماه أرض أفغانستان إلاّ في شهر جويلية / يوليو عام 2002 أي قبل وصولنا إلى كابل بأسابيع قليلة.

ترك هذا الشابّ القاهرة وأجواءها، وخلّف هناك أصدقاء وحياة عامرة بكلّ شيء، الأمر الذّي أثّر على نفسيته ومعنوياته وجعله يشعر بغربة شديدة، فهو يعيش مع أقاربه الأفغان، ولا يعرف من لغة القوم إلا اليسير النّادر الذّي بدأ يتلقّفه من أفواه أقرانه.

كانت ظروف والده الصّحية هي التّي أجبرته على العودة إلى أفغانستان؛ فالوالد مكث في غربته أكثر من خمسين عاما قضى أغلبها في مصر، وعندما لازمه المرض في السّنوات الأخيرة ويئس من البرء منه قرّر العودة إلى أفغانستان ليُدفن في أرض آبائه وأجداده، وهو ما حصل فعلا حيث توفّي بعد ثلاثة أشهر من وصوله إلى مسقط رأسه.

دعانا الشّاب الأفغانيّ إلى ولاية (لوجر)، وتحديدا إلى قرية (زَرْغُون شهر) حيث يسكن، ولم تكن بعيدة ولا خطرة فلبّينا الدّعوة.

في الطّريق توقّفنا قرب أحد حقول القمح حيث يحرث فلاّح أرضه بمحراث خشبيّ يجرّه ثور ضخم الجثّة، فالزّراعة في أفغانستان ما زالت بدائية جدا ولم يدخلها إلا القليل النّادر من الآلات والمعدّات الحديثة.

جلسنا حيث نشاهد الفلاّح وثوره ومحراثه، وتناولنا فطور الصّباح الذّي أحضرناه معنا، فقد خرجنا مبكّرين نوعا ما لنعود دون تأخير إلى كابل، تحسّبا لأيّ أحداث أو مستجدّات تدعو إلى المتابعة أو التّغطية.

تجمّع حولنا بعد ذلك عدد من الأولاد وشابّ ناهز العشرين يلاحظون ويعدّون علينا، كعادة أهل الأرياف والقرى، حركاتنا وسكناتنا خاصة ونحن نتحدّث لغة غير التّي اعتادوا عليها؛ فقد كنت أتحدّث إلى المترجم باللّغة العربية، وأخاطب المصّور بالإنجليزية التّي يجيدها أكثر من العربيّة.

تقدّم الشابّ نحونا ودفعه الفضول ليسأل المترجم بلغة البشتون عن هويتنا، فقد تأكّد له أنّنا غرباء خاصّة أنا بشكلي ولباسي والكاميرا الصّغيرة التّي أحملها، فقال له المترجم إنّنا من قناة تلفزيونية تسمّى الجزيرة، فظهر من تعبيرات وجه الشّابّ أنّه لا يعرف عن الجزيرة أيّ شيء، فأراد المترجم أن يقرّب له الصّورة أكثر ويأتيه من خلال شخص ظنّ أنّ جميع الأفغان يعرفونه.

أعدّ المترجم "السّيناريو" بحيث يقول له هل تعرف أسامة بن لادن..؟ وعندما يجيبه بنعم، يقول له ألم تسمع بالجزيرة التّي تبثّ أشرطة (ابن لادن)..؟

وهكذا سأل المترجمُ الشّابَّ: هل تعرف أسامة بن لادن..؟ ، فردّ الشّابّ بسرعة مشيرا إليّ: (دَغَه دَا): أي هذا هو..؟ فضحكنا جميعا ولبثنا بعد ذلك، ولعدّة أيام، نضحك كلّما تذكّرنا القصّة.

ورغم هذه القصّة الطّريفة فإنّ خصوم الجزيرة قبل أصدقائها يدركون ما تتمتّع به الجزيرة من شهرة وسمعة طيّبة في عموم أفغانستان خاصّة مناطق البشتون في الجنوب والشّرق.

ومع ما تعرّضت له القناة من انتقادات وحملات تشويه في أفغانستان ما بعد طالبان؛ فقد استعادت بسرعة سمعتها من جديد حتى صارت رمزا لقوّة الكلمة والسّرعة في الوصول إلى مكان الحدث وبثّ الخبر.

وأذكر أنّني كنتُ عائدا صحبة فريق عملي في شهر سبتمبر عام 2002 من منطقة "سُرُوبِي"، فتوقّفنا عند بائع بطّيخ قرب الطّريق العامّ الرّابط بين كابل وجلال آباد، حيث كان الجوّ حارا فاشترينا منه بعض البطّيخ لنأكله خلال استراحتنا.

لاحظ البائع الكهل معدات التّصوير التّي معنا، فسأَلنا عن طبيعة عملنا، فأخبرناه أنّنا من الجزيرة، فبدأ يحكي بحماس لرجل يجلس قربه، عن الجزيرة وسرعتها في نقل الأخبار وكيف تصل إلى كلّ مكان في العالم. تحدّث عن كلّ ذلك مع أنّ الرّجل يسكن قرية تقع في سفح الجبال المطلّة على الطّريق، ولا يملك جهاز تلفاز على الأرجح ولم يتسنّ له مشاهدة الجزيرة يوما ما.

وخلال تغطياتنا للمظاهرات والاحتجاجات الشّعبية في كابل كان الارتياح يظهر على الوجوه عندما يحضر فريق الجزيرة، وكان بعضهم لا يتمالك نفسه فيهتف بفرح (الجزيرة رَاغْلِي)، أي جاءت الجزيرة، لأنّهم يدركون أنّ الجزيرة ستوصل صوتهم وتبثّ صورهم ولن تجامل الجهات الحكومية أو القوّات الأمريكية بحذف أو قطع التّصريحات الغاضبة ضدّ الأداء الحكوميّ، أو تلك المنذّدة بالوجود الأمريكيّ في أفغانستان.

والحقيقة أنّ حرب أفغانستان التّي شنّتها الولايات المتحدة وحلفاؤها على نظام طالبان والقاعدة هي التّي رفعت الجزيرة إلى مستويات عالية من الشّهرة في جميع بقاع الدنيا، وإن كانت الجزيرة قد عُرفت من قبل خلال الهجوم الجويّ الذّي شنّه الأمريكيون وحلفاؤهم على بغداد عام 1998.

وقد يصعب التّخمين إن كان القدر وحده هو الذّي خدم الجزيرة ومراسلها تيسير علّوني الذّي كان في كابل قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، أم أنّ إدارة الجزيرة كانت، وربّما بمساعدة خبراء متخصّصين، قد استقرأت المستقبل وأدركت أنّ المنطقة مقبلة على أحداث جسام لا محالة، فسارعت إلى فتح مكتب لها في العاصمة كابل خلال العامين الأخيرين من حكم طالبان.

وقد سمعتُ من الزّميل تيسير علّوني، عندما قابلته في الدّوحة، حكاية مأساته مع طالبان وكيف وجد صعوبة شديدة في استعمال الكاميرات في كابل، فالتّصوير على رأي علماء طالبان حرام، وقد استطاع تيسير بعد عناء شديد إقناع المَوْلَوِي وكيل أحمد متوكّل وزير خارجية طالبان آنذاك بأهميّة فتح مكتب للجزيرة في كابل، لكنّ فريق الجزيرة ظلّ يعاني من عراقيل ومنع وتعنيف عناصر شرطة طالبان في الميدان؛ فلديهم أوامر مشدّدة بمنع التّصوير، وهم أنفسهم يرون حرمة التّصوير واستعمال آلاته لأيّ غرض عدا للصّور الخاصّة ببطاقات التّعريف وجوازات السّفر وما شابه ذلك.

وكانت حركة طالبان بعد دخول كابل قد أوقفت بثّ التّلفزيون الحكومي الرّسميّ، ومن الطّرف التّي تُحكى في هذا الشّأن أنّ عددا من النّافذين في حركة طالبان، ممن اقتنعوا بضرورة تشغيل محطّة تلفزيون

كابل، بذلوا جهودا كبيرة لإقناع الملاّ عمر زعيم طالبان بهذا الأمر، فاقتنع الرّجل بعد جهد جهيد قائلا: شغّلوه لكن دون صورة، أي بالصّوت فقط.

وظلّ تيسير قرابة العامين يتردّد على أفغانستان ويغطّي أحداثا عاديّة، واستطاع تكوين شبكة علاقات جيّدة وعرف البلاد وثقافتها ولغاتها وتضاريسها، وجهّز مكتبه جيّدا بكل وسائل الاتّصال والإرسال.

وعندما تفاجأ الجميع بأحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من حرب أمريكية على طالبان والقاعدة؛ كان تيسير ومكتبه والجزيرة من ورائه على أتمّ الاستعداد لنقل الحدث بالصّوت والصّورة إلى العالم الذّي وقف بجهاته الأربع ينتظر ما يقوله هذا الصّحفي العربيّ؛ فحركة طالبان لم تسمح لقنوات تلفزيونيّة أخرى بالعمل والنّشاط في كابل وبقية مناطق أفغانستان الخاضعة لنفوذها، سوى في الأسابيع الأخيرة التّي سبقت سقوط الحركة على يد القوات الأمريكية وحلفائها من الأفغان.

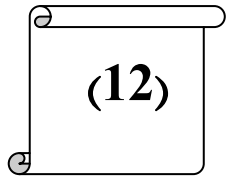

(12) بادشاه خان زَدْرَان

كنّا في أواسط شهر نوفمبر 2002 عندما قرّرنا زيارة ولاية "خُوسْت" بشرقيّ أفغانستان، والتّي تقع على الحدود مع باكستان وكانت، هي وعاصمتها التّي تحمل نفس الاسم، محطّ اهتمام في تلك الأيّام بسبب إعلان الزّعيم القبليّ بادشاه خان زَدْرَان من جديد تمرّده على حكومة الرّئيس حامد كَارْزَي، واعتصامه بالجبال حيث يطالب من هناك سلطات كابل بتسليمه إدارة ولاية خوست إلى جانب ولايتي "بَكْتِيكَا" و"بَكْتِيَا"، أو ما اصطلح عليه في عرف الحكومات الأفغانيّة السّابقة بـ (زُون مشرقيّ) أيّ منطقة الشّرق.

وقصّة هذا الزّعيم بدأت مع الحملة الأمريكية لإسقاط طالبان حيث كان أحد ثلاثة قادة اعتمدت عليهم القوّات الأمريكية في تنفيذ خطّتها الرّامية إلى اختراق طالبان من الدّاخل وتأليب قبائل البشتون عليها؛ حيث كان هؤلاء مصدر قوّتها وثباتها وذراعها الضّاربة، فبين البشتون وفي مناطقهم نشأت حركة طالبان، وبرز جميع قادتها المؤثّرين من بين أبناء هذه العرقيّة القويّة في أفغانستان.

كان على القائد بادشاه خان أن ينشط سرّا في ولايات خُوسْت وبَكْتِيَا وبَكْتِيكَا حيث ينتشر بنو قومه (زَدْرَان)، وذلك بالتّزامن مع بدء الحملة الأمريكيّة الجويّة على طالبان، ودخل حامد كارزي إلى ولاية "أُرُوزْغَان" بوسط أفغانستان، أو هكذا أشاع من خلال اتّصالاته عبر هاتف الثّريا

بوسائل الإعلام الغربية، فبعض الأفغان يشكّكون في أمر دخوله، ويقولون إنّه ظلّ في مدينة "كْوِيتَا" الباكستانيّة وأوهم رجال الإعلام أنّه يتحدّث من داخل أفغانستان.

وكان ثالث الثّلاثة القائد عبد الحقّ، الذّي كان يتبع الزّعيم يونس خالص أيّام الجهاد ضدّ القوّات السّوفيتية؛ حيث تسلّل إلى مناطق قريبة من العاصمة كابل انطلاقا من ولاية نِنْجَرْهَار موطنه الأصليّ، وقرب كابل قُتل في ظروف غامضة، وشاع بين الأفغان أنّ المخابرات الأمريكية قصّرت في حمايته ومدّ يد العون له في الوقت المناسب حينما كان يستغيث عبر هاتف الثّريا.

وبعد سقوط دولة طالبان عُيّن بادشاه خان حاكما لولاية "بكتيا"، التّي تقع على الطّريق بين كابل وخوست، لكنّه عُزل بعد فترة قصيرة، فجمع أنصاره وتحصّن في الجبال، وقصف مدينة "غارديز" عاصمة الولاية التّي كان يحكمها، ثمّ حاول بعد ذلك السّيطرة على ولاية خوست وطرْد واليها الذّي عيّنته الحكومة.

لم ألتق بادشاه خان لكنّ الزّميل محمد الصّافي الذّي كان معنا في كابل لبعض الوقت التقى به، وأعدّ بعض التّقارير عن منطقته ورجاله وقصّة خلافه مع حكومة كارزي.

كان بادشاه خان أميّا لا يعرف القراءة والكتابة ومع ذلك شارك في مؤتمر برلين الذّي انعقد خلال الأيام الأخيرة التّي فقدت فيها حركة طالبان السّيطرة على كابل ومعظم المدن الأفغانية، وهناك تلقّى "المسكين" على ما يبدو بعض الوعود لقاء الخدمات التّي قدّمها للقوّات الأمريكية.

لكنّ الرّجل وجد نفسه خارج إطار اللّعبة "الأمريكية الأفغانية" حين بدأت حكومة كارزي تقف على قدميها، فكانت حالته أشبه بسلاح قديم

تجاوزه الزّمن بعدما تطوّرت أسلحة منافسة له؛ فعهد الرّئيس حامد كارزي كان في حاجة إلى وجوه جديدة تحسن تطبيق المشروع "التّنويري" الجديد، والرّجل لا ناقة له ولا جمل في مثل هذه الأمور، فهو بشتونيّ بسيط ولا يحمل من مؤهّلات القيادة سوى ماضيه القتاليّ والتفاف قومه (زدران) حوله لاعتبارات قبليّة بحتة.

لمّا غادرْنا مدينة "غارديز"، وبدأنا نصعد الجبال التّي تفصل بينها وبين خوست وجدنا الطّريق مليئة بقوافل البدو الرّحل، كانوا يستعدّون لفصل الشّتاء فيغادرون الأماكن الباردة التّي كانوا فيها صيفا، وينتقلون إلى الحدود الأفغانية الباكستانية حيث الشّتاء مقبولا إلى حدّ ما.

كانت مواشي وجمال وحمير البدو تملأ الطّريق فتعطّل حركة السّيارات، وكان منظر الأطفال، المثبّتين بإحكام فوق الأمتعة على ظهور الدّواب، مثيراً للغاية، وكانت النّساء تكابد مع الرّجال مشاقّ الطّريق وملاحقة المواشي والدّواب وحثّها على السّير، أو على إفساح الطّريق للسّيارات... حياة فيها من الشّقاء الكثير، لكنّها، على ما يبدو، لا تخلو من معاني السّعادة أيضا، وسبحان الله "فكّل مُيَسّر لما خُلق له".

في منتصف الطّريق بين "جارديز" و"خوست" استرعى انتباهَنا أفرادٌ مسلّحون أمام مركز متواضع على جانب الطّريق فوقفنا لاستجلاء الأمر، وقبل أن نبادر بالسّؤال تعرّف سائقنا البشتونيّ (تاج جل) عليهم وقال إنّهم جماعة بادشاه خان زدران.

رحّبت بنا المجموعة المسلّحة وقام المصوّر بالتقاط صور لهم ولأسلحتهم وبعض مدافعهم الرّشّاشة الموجّهة نحو الطّريق العامّ، وحاورنا بعد ذلك قائدهم وهو شقيق بادشاه خان، وانطلقنا لنواصل سيرنا إلى

خوست، بعد أن عرفنا أنّ بادشاه خان انتقل إلى منطقة جبلية بعيدة يصعب الوصول إليها.

مدينة خوست لم تكن كبيرة، لكنّ الحركة التّجارية فيها نشطة جدا، فإضافة إلى كونها منطقة حدودية ويمرّ عبرها قسم مهمّ من التّجارة الأفغانية الباكستانية؛ يعمل عدد كبير من رجالها في دول الخليج العربية.

العلاقة بدول الخليج عبر العمّال لمسنا آثارها في عدد من المحلاّت التّجارية التّي كتبت لوحاتها باللّغة العربية، وكثرة من يتحدّث العربية "المكسّرة" المنتشرة بين غير العرب في الدّول الخليجية.

التقينا بحكيم تَانِيوَال الوالي المعيّن من حكومة كارزي وهو بشتونيّ كان مغتربا لبعض الوقت في أستراليا، وتحدّث إلينا الرّجل عن تمرّد بادشاه خان زدران وعدم أحقيّته فيما يطلب.

في طريق عودتنا من خوست توقّفنا لنصوّر مقبرة قيل لنا إنّها لعرب قُتلوا جراء القصف الأمريكيّ للمنطقة خلال الأيّام الأخيرة لطالبان.

المقبرة كانت على طريقة الأفغان مزيّنة بالأعلام والرّايات التّي تحمل آيات الجهاد والشّهادتين، وبُني حولها سور من الطّين، ويقوم على خدمتها رجل وابنه الذّي لم يتجاوز عامه العاشر.

أردتُ أن اختبر الولد الصّغير، فقلت له إنّ أمريكا تقول إنّ هؤلاء إرهابيون وأنت تسمّيهم شهداء، فردّ بغضب إنّ هؤلاء شهداء ولا وزن لكلام أمريكا. وبادر الولد بعد ذلك فسأل المترجم عن هويّتي فأخبره أنّني عربيّ، فاستغرب هو ووالده من وضعي وكيف أتجوّل بحريّة دون خوف من القوّات الأمريكية.. ويبدو أنّ سلسلة الملاحقات التّي مسّت العرب في المنطقة رسمت صورة نمطيّة محدّدة للعربيّ.

ونفس هذا التّفكير النّمطيّ تكرّر معي مرّة أخرى في الأحياء الشّرقية للعاصمة كابل حيث تزداد المشاعر المعاديّة للوجود الأمريكيّ.

وقفنا نشتري بعض المشروبات فتجمّع حول سيّارتنا عدد من الأطفال، وسألني أحدهم إن كنتُ أمريكيا أم لا..؟ فأجبتُ بأنّني عربيّ. فاستغرب الأطفال لذلك وسألوا المترجم كيف أتجّول دون أن تعتقلني القوّات الأمريكية..؟ وأخيرا قال أحدهم للآخر وبكلّ بساطة، (دَا دِي أمريكا سَرَيْ دِي) أيّ هذا عميل لأمريكا، فالعربيّ في مثل تلك المناطق هو مطارد وعدوّ لأمريكا أو العكس تماما.

(13) في ولاية هرات

مدينة هرات التّي تقع قرب الحدود الإيرانية الأفغانية تتميّز عن باقي مدن أفغانستان بكثير من مظاهر الثّقافة والمدنيّة والنّظام، فضلا عن حيازتها لعدّة مواقع أثرية مهمّة بينها مسجد هرات الكبير الذّي يمثّل رائعة من روائع الفنّ المعماريّ الإسلاميّ.

سافرتُ في مطلع شهر ديسمبر عام 2002 على عجل إلى مدينة هرات بعد أن نشبت مناوشات في منطقة (شيْنْدَنْد)، القريبة من هرات، بين قوّات والي الولاية آنذاك إسماعيل خان، وقائد بشتونيّ مناوئ له يدعى أمان الله خان.

المسافة بين كابل وهرات بعيدة والطّريق الوحيد الذّي يربط بينهما يمرّ عبر ولاية قندهار الجنوبية، وكان سيّئا للغاية في ذلك الوقت، ويستغرق الوصول عبره إلى هرات أكثر من يومين، هذا إذا كانت السّيارة في حالة جيّدة، أمّا الحافلات الكبيرة، المحمّلة بالأمتعة والبشر، والشّاحنات الضّخمة فتقطع المسافة في عدّة أيّام.

كان من حسن حظّي والمصّور الذّي رافقني أن عثرنا على مقعدين في طائرة تابعة لشركة آريانا الأفغانية في طريقها إلى هرات، فوصلناها منتصف النّهار.

ركبنا سيّارة أجرة من أمام المطار الذّي يبعد عن المدينة عشرين كيلومترا، وكانت الطّريق جيّدة إلى حدّ كبير ومزيّنة بصور شهداء هرات

الذّين سقطوا إبّان الغزو السّوفيتيّ لأفغانستان؛ فالمدينة عانت كثيرا في الأيّام الأولى التّي أعقبت الانقلاب الشّيوعيّ الذّي شهدته أفغانستان في نهاية السبعينيات من القرن العشرين؛ ففي يومين اثنين فقط قتلت قوّات الحكومة الأفغانية المدعومة بالقوّات السّوفيتية أكثر من عشرين ألف مواطن.

لوحة التّرحيب والوداع التّي عُلّقت بين المدينة والمطار كُتبت بأربع لغات بينها العربية، ففرحتُ عندما رأيتها وتوقّعت أن تكون الحساسيّة من العرب في هرات أقلّ بكثير من باقي مناطق أفغانستان.

بعد أن وضعنا أمتعتنا في الفندق خرجنا في جولة ببعض أسواق وشوارع المدينة إلى موعد أذان المغرب، وكان شهر رمضان في أيّامه الأخيرة فأفطرنا في أحد المساجد وأدّينا صلاة المغرب فيه.

مدينة هرات كانت متميّزة فعلا، فالنّظام واضح فيها ومظاهر المدنيّة والحفاظ على البيئة كانت بادية أيضا، وبينما كان النّاس في العاصمة كابل ومدن أخرى يخافون حتّى على أبواب منازلهم أن تكسر أو تقلع خلال اللّيل؛ كان في هرات هواتف عامّة في الشّوارع على النّمط الإيرانيّ، دون أن يمسّها أحد بسوء أو يقطع أسلاكها كما هو الحال عند المجتمعات المتخلّفة.

في صباح اليوم التّالي اتجهنا مبكّرين بعض الشّيء إلى مقرّ ولاية هرات حيث قدّمنا وثائقنا وبطاقاتنا الصّحفيّة، وحصلنا دون كبير عناء على تصريح من المكتب الصّحفيّ التّابع لإدارة الولاية، وكانت سيّارة أجرة بانتظارنا في الخارج فانطلقنا مباشرة نحو قاعدة (شِينْدَنْد) عبر طريق طويل معبّد بالخرسانة أو الاسمنت المسلّح وهي طريقة روسيّة لتعبيد الطّرقات في المناطق الباردة ومناطق الأمطار كما أخبرنا السّائق.

ولأنّ كتل الخرسانة تحتاج إلى فراغ بينها مراعاة لفصل الصّيف حيث تتمّدد هذه الكتل بالحرارة؛ فقد قضينا أكثر من ساعتين في هذا الطّريق ولم نشعر بأيّ هدوء أو راحة، فعجلات السّيارة تصطدم تباعا بالفراغات وتخلّف أصواتا وحركة اهتزازية دائمة.

وصلنا إلى مشارف قاعدة (شِينْدَنْد) لنجد جهودا للوساطة والصّلح بين طرفي النزاع، فحاولنا إجراء أيّ حوار أو الحصول على أيّ معلومات عمّا يجري، لكن دون جدوى فجميع القادة المؤثرين كانوا في اجتماع داخل إحدى القاعات.

غامرنا بالتوغّل حتّى خطّ القتال الأوّل حيث التقطنا صورا وأجرينا حوارات مع المقاتلين، ونقلنا بالصّوت والصّورة حالتهم المزريّة وهم يرابطون في جوّ بارد جدّا ويشاركون في معارك يديرها قادتهم بالوكالة عن جهات إقليمية ودولية.

كنّا صائمين ولم يبق على أذان المغرب إلا ساعة من الزّمن ولم يكن أمامنا خيار سوى الخروج من المناطق المتوتّرة والعودة إلى مدينة هرات قبل حلول الظّلام، فانطلقنا بما صوّرنا بعد أن أخفينا شريط الصّور خوفا من أيّ تفتيش مفاجئ، وبحمد الله وصلنا إلى المدينة وبتنا ليلتنا في الفندق بسلام.

لم يبق على عيد الفطر إلا يوم واحد وليست هناك سوى رحلة طيران واحدة في هذا اليوم، فاشترينا تذكرتي سفر على طائرة آريانا التّي ستصل من كابل، وانطلقنا مبكّرين إلى المطار فقد طلبوا منّا الحضور قبل السّاعة التّاسعة صباحا.

مدينة هرات ومطارها يقعان في سهل واسع، والجوّ كان باردا جدّا فقد انخفضت درجة الحرارة إلى عشر درجات تحت الصّفر رغم أنّ السّماء كانت صافية والشّمس ترسل أشعّتها الذّهبية لكن دون حرارة.

المطار عبارة عن مدرج واحد وبناية كانت تخضع للتّرميم في تلك الأيّام، فلم يكن أمام المسافرين سوى الانتظار في الهواء الطّلق قرب المدرج.

دخلنا من البوّابة الرّئيسية حيث يقف شرطيّ يفتّش الحقائب ويتفحّص تذاكر السّفر، ولما عرف أنّني أجنبيّ طلب أن يرى جواز سفري، فجادله المصوّر الأفغاني الذّي يرافقني بأنّ الرّحلة داخلية ولا ضرورة لمعاينة جوازات السفر، فلمّا أصرّ أخرجتُ جواز سفري وأريته التّأشيرة التّي كانت سارية المفعول، فأخذ الجواز وانشغل بتفحّص التّأشيرات التّي عليه من باب الفضول، ولمّا سلّمني إياه قال لي تفضّل ونسي أن يفتّش حقيبتي.

ازدادت مخاوفي وخفت أن يؤدّي الإهمال الذّي رأيته عند الدّخول إلى كارثة، لا قدّر الله، خاصّة أنّني شاهدت أكثر من شخص يأتي بأغراض لتُرسل إلى كابل على متن الطّائرة، ويكتفي رجل الأمن بسؤاله عن صاحب الأغراض، فيقول على عادة القوم هي لفلان المحترم، فيتركها ولا يفتّشها.

طال الانتظار في المطار ساعة بعد أخرى وجموع كثيرة بينهم نساء وأطفال ينتظرون ويرتجفون من شدّة البرد وعيونهم تتطلّع من حين إلى آخر إلى الجهة التّي يظنّون أنّ الطّائرة ستأتي منها، فقد أخبرنا موظّفو المطار أنّ الطائرة تنطلق من مدينة مزار شريف في الشّمال لتحطّ في كابل ثمّ تطير إلى هرات من جديد وبعدها تعود بنا إلى كابل.

السّاعة الثّالثة بعد الظّهر لاحت الطّائرةُ الموعودة في الأفق، فاستبشرنا خيرا وحاولنا أن ننسى فترة الانتظار الطّويلة التّي بلغت ستّ ساعات وما صاحبها من معاناة جرّاء البرد القارص.

أنزلت الطائرة ركّابها وبدأنا نستعد في طوابير لصعود الطّائرة ومن الباب الخلفيّ كما هو الحال مع طائرات الشّحن وبعض الطّائرات العسكريّة.

وبعد صعودنا إلى الطّائرة لاحظ الطّاقم المضيف أنّ عدد الرّكاب أكثر من المقاعد فكان الحّل أن أجلسوا كلّ أربعة مسافرين في ثلاثة مقاعد، وطلبوا من قرابة عشرين راكبا النّزول، فلما رفضوا أنزلهم رجال الأمن بالقوّة بعد أن كاد الطّرفان يشتبكان داخل الطّائرة.

وفي النّهاية حلّقت الطائرة في الجوّ لتبدأ رحلة "مخيفة" فوق سلاسل جبلية متّصلة باتجاه مطار كابل الدّولي لتنزل فيه عند الغروب بعد أن بلغت قلوب بعض المسافرين الحناجر، فحمدتُ الله كثيرا على سلامة الوصول، وحاولت أن أتناسى متاعب الرّحلة استعدادا ليوم العيد.

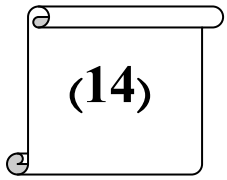

(14) كابل ما بعد طالبان

العاصمة الأفغانيّة كابل بعد زوال دولة طالبان تحوّلت إلى مزيج من الأفكار والتوجّهات والأجناس والمؤسّسات الأفغانية والدّولية المتعدّدة المشارب والأهداف.

وتحولت كابل أيضا إلى مسرح للقوّات الدّولية المتعدّدة الجنسيات إيساف، التّي كانت تقودها الأمم المتحدة ثم سلّمت قيادتها لحلف الناتو لاحقا؛ حيث تقوم هذه القوات بتسيير دوريات في شوارع كابل الرّئيسية على مدار الساعة، وتحافظ على أمن مطار كابل الدوليّ.

وإضافة إلى القوّات الدّولية يوجد في كابل قسم من القوّات الأمريكية، في ثكنات محصّنة بشكل لافت للنظر، ويقوم هذا القسم بتأمين الحماية للسّفارة الأمريكية والمصالح التّابعة لها، ويعتبر بمثابة الطّليعة لبقية القوّات الأمريكية التي تتمركز بشكل أساسيّ في عدة قواعد خارج المدن الأفغانية منها قاعدة (بجرام) شمال كابل، وقاعدة مطار قندهار بجنوبيّ البلاد، وقاعدة ثالثة قرب مدينة أسعد آباد عاصمة ولاية كُونَار شرقيّ أفغانستان.

الدّيمقراطية التّي وعدت بها الولايات المتّحدة الأمريكية بعد رحيل طالبان لم يَطْفُ على السّطح منها سوى المظاهر والقشور، ومن ذلك مثلا صناديق انتخابات تُحمل في مناطق كثيرة على ظهور البغال والحمير ويعلم الله ماذا يحدث لها في تلك المسالك الوعرة، هذا إذا سلّمنا أنّ العمليات

الانتخابية التّي شهدتها البلاد في هذا العهد تمّت في جوّ مقبول خاصّة في المناطق والفجاج البعيدة عن المدن الأفغانية الكبرى؛ فمنطق العشيرة، أو لوردات الحرب، هناك هو الذّي يسيطر على توجّهات النّاس.

الرّخاء الاقتصاديّ، أو الحدّ الأدنى من الحياة الكريمة على الأقلّ، يعتبر الضّمان الحقيقيّ لأيّ عملية ديمقراطية، لكنّ هذا الرّخاء المنتظر في أفغانستان ظلّ يراوح مكانه ولم يتجاوز حاجز الوعود والكلام المعسول، والرّئيس حامد كارزي، الذّي وصل على ظهر الدّبّابات الأمريكية، لم يكن يترك مناسبة كبيرة أو صغيرة إلا ويبشّر الشّعب الأفغانيّ بالخير القادم، والحياة الرغيدة التّي ستعرفها البلاد بفضل "الدّيمقراطية" ومساعدة واهتمام الدّول الصديقة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حليفتها الأسّاسية في حربها على "الإرهاب".

مئات الملايين من الدّولارات كانت تصل من الدّول المانحة التّي تعهّدت، خلال أكثر من مؤتمر دوليّ، بدعم مشاريع إعادة إعمار أفغانستان، لكنّ الأفغان يقولون إنّ هذه الأموال لا تصل إلى أصحابها ولا تتحوّل إلى مشاريع حقيقية تغيّر من واقع البنية التّحتية المدمَّرة لأفغانستان.

فجزء كبير من هذه الأموال، يصل أحيانا إلى ستّين في المائة حسب الأفغان، يُصرف على الجوانب الإدارية للمؤسّسات الدّولية التّي تشرف على مشاريع إعادة الإعمار؛ فأكثر الدّول المانحة لا تقدّم دولارا واحدا للحكومة الأفغانية بشكل مباشر، بل تسلّمه لمؤسّسات الأمم المتحدة والمؤسّسات غير الحكومية (NGO) لتصرفه على مشاريعها وبرامجها الموجّهة لدعم مؤسسات الحكومة وتنفيذ برامج خدمية وتنموية لعامّة الشّعب.

وفي الفترة التّي قضيتها في أفغانستان كنت أسمع الكثير من "الهمس والقيل والقال" بحقّ المؤسّسات الدّولية، وما لبث أن تحوّل هذا الهمس إلى "صراخ عال"، تحدّث به بعض المترّشحين للانتخابات الرّئاسية التّي جرت عام 2004، وتحدّث به وزراء في حكومة كارزي.

وكان أغلب حديث الأفغان وغضبهم يدور حول الرّواتب العالية التّي يتقاضاها موظّفو المؤسّسات الدّولية والمنظّمات غير الحكومية، و"الخبراء" الذّين تنتدبهم هذه المؤسّسات للعمل على تطوير مختلف الوزارات والمؤسّسات الأفغانية.

سمعتُ بعض الأفغان يتحدّث عن رواتب خيالية لهؤلاء "الخبراء"، فبعضهم يتقاضي مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار في الشّهر، وبعضهم ممن جاء في مهمّات محدّدة أو مؤقتة يتقاضى مبلغ ستّمائة دولار أو أكثر مقابل كلّ يوم تغرب فيه الشّمس عليه في كابل.

وكان الأفغان يردّدون أنّ الأموال التّي تصرف على هؤلاء الخبراء وغيرهم قد جاءت في الأساس للشّعب الأفغاني وحكومته، وفي المقابل تنفي المؤسّسات الدّولية، وبشدّة، ما يشيعه الأفغان عنها وتقول إنّ مصاريفها الإدارية من مصادر أخرى لا علاقة لها بالمنح والمساعدات الدّولية المقدّمة للشّعب الأفغانيّ.

ومع مرور الزّمن وتزايد الاتّهامات الموجّهة للمؤسّسات الدّولية، بدأ بعض مسؤولي الأمم المتّحدة والمنظّمات غير الحكومية يتحدّثون بصراحة عن عدم كفاءة المؤسّسات والوزارات الأفغانيّة، وعدم أهليتها للتّصرف في أموال المنح الدّولية؛ فكثير من الوزارات، حسب هؤلاء، تعيش حالة فوضى إدارية وفساد وتسلّط فئة عرقية أو حزبية معينة على كلّ شيء في الوزارة؛

ممّا يجعل النّهب وتحويل الأموال الدّولية إلى مسارات أخرى أمرا سهلا للغاية.

وفي كابل ما بعد طالبان صار "كلٌّ أحد يغنّي على ليلاه" دون خوف من أحد شريطة أن لا يشكّل خطرا حقيقيّا ومباشرا على المشروع الأمريكيّ الوليد.

الإسلاميّون "المعتدلون" لهم نشاطاتهم ومراكزهم وحتّى إصداراتهم ومنابرهم الإعلاميّة، والشّيوعيون السّابقون ظهروا بألوان وأسماء جديدة، أمّا المعجبون بـ "الزّمن الأمريكي" فما أكثرهم..! فبعض الشّباب الأفغان صار لا يحسن حتّى الغضب بلغته الأمّ البشتو أو الفارسيّ؛ فإذا ضايقه أحد انطلقت الشّتائم بالانجليزية، وإذا تحدّث أدخل جملا ومصطلحات بلغة "العمّ سام" موهما من يسمعه أنّه لم يتمكن من استحضارها بإحدى اللّغات الأفغانيّة.

تعرّفتُ على مركز شبابيّ يطلق على نفسه (مركز جوانان أفغانستان) أي مركز شباب أفغانستان، ينشط فيه شباب أفغان لا يتردّد بعضهم في التّصريح بأنّ مركزهم يتلقّى دعما أمريكيا مباشرا.

أحد هؤلاء الشّباب، ويدعى صابر، كان يزورنا في مكتب الجزيرة بكابل، ولأنّه يجيد العربيّة فقد توطّدت العلاقة بيننا، كان صريحا إلى حدّ كبير، وكان يصف مازحا السّنوات الماضية التي كان فيها إسلاميا بـ (أيّام الجاهليّة)، ورغم أنّه درس الكتب الدّينية قبل أن يكمل دراسة الشّريعة والقانون في الجامعة الإسلامية العالميّة بإسلام آباد؛ فقد أطلق لنفسه العنان واندمج تماما مع "الزّمن الأمريكيّ" في كابل..

خرجتُ يوم جمعة بصحبة بعض الزّملاء الصّحفيين، وكان صابر معنا، وقصدنا منطقة "بُولْ صَيّاد" في ولاية "بَرْوان" المحاذيّة للعاصمة

كابل، وهناك وضعنا متاعنا وطعامنا فوق أرض خضراء على شاطئ نهر غزير المياه ينبع من جبال "غُورْبَنْد".

بعد أن سبحنا في النّهر لبعض الوقت وتناولنا الطّعام جلسنا نتحدّث ونستمتع بمنظر النّهر الجميل، وطبيعيّ أن يصل بنا الحديث إلى قضايا البلاد الشّائكة، حيث كنت أتابع حديث الزّملاء الأفغان لرصد وفهم أكثر من وجهة نظر حول ما يجري في أفغانستان.

وصل بنا الحديث إلى المستقبل وما يحمل في طيّاته لشعب أفغانستان، فقال صابر بكلّ بساطة وهو يتحدّث عن الجوانب الثّقافية: أقترح أن تكون لغة أفغانستان الرّسمية هي الإنجليزية، وأضاف: لغتا البشتو والفارسيّ ستنقرضان خلال مائة عام.

صدمني قوله باعتباره إغراق لا حدود له في الإعجاب بثقافة الغالب، ولكنّني تماسكتُ وقلت له اسمع يا صابر لك أن "تعشق" أمريكا وثقافتها إلى أيّ حدّ شئت، وإلى أيّ درجة تريد، إياك فقط أن توغل في الخطأ وتتجاهل الحقائق التّاريخية والسّنن الكونيّة وتعتقد أنّ "الزّمن الأمريكيّ" هو نهاية التّاريخ.

(15) البَاشَائِي... أحفاد الإغريق

أفغانستان التّاريخية والحاليّة أشبه بالفسيفساء بسبب تعدّد الأعراق التّي تأتي في مقدّمتها عرقيّة البشتون (الباتان) ثمّ الطّاجيك والأوزبك، وعرقيات أخرى أقلّ شهرة وعددا بينها "البَاشَائِي" سكّان الجبال الذّين يقطنون مناطق وسلاسل جبليّة بشرقيّ وشمال شرقيّ أفغانستان.

كان لمكتب الجزيرة في أفغانستان علاقة بشابّ متعلّم ينتمي إلى عرقيّة "الباشائي" يدعى محمود جل رحمن يعمل مترجما بإحدى السّفارات العربيّة بكابل. حدثّنا محمود أكثر من مرّة عن حياة النّاس في الجبال وبساطتها الشّديدة، ودعانا إلى زيارة بعض القرى في منطقته الجبلية "كَاتْشَا" التّي تتبع إداريّا ولاية "كَابِيسَا" شرق ولاية كابل.

أعددنا للرّحلة عدّتها وانطلقنا برفقة محمود وصهره حاجي عبد المنّان (قاضي قضاة ولاية كابيسا) الذّي ينحدر من نفس المنطقة الجبليّة ويُعدّ أحد وجهائها، وأبرز أبنائها الذّين تلقّوا تعليما عاليا خارج أفغانستان، حيث درس في كلّ من المملكة العربية السّعودية وجمهورية مصر العربيّة.

سلكنا الطّريق المؤديّة إلى مدينة جلال آباد بشرقيّ أفغانستان، وكانت مدمَّرة عن آخرها، حيث لم تبدأ الحكومة بعد تهيئتها وإعادة تعبيدها، وبعد قرابة السّاعتين من الزّمن انعطفنا يسارا، وتحديدا قبل قرية وسوق

"سُرُوبِي"، ومن هناك مررنا بمحاذاة سدّ مائي كبير حيث تقع محطّة الكهرباء الرّئيسية التّي تغذّي العاصمة كابل بالطّاقة.

دخلنا حدود ولاية كابيسا وتابعنا السّير على طريق أسوأ من طريق جلال آباد إلى أن بلغنا قرية كبيرة تُسمّى "تَاجَاب" تشتهر بأشجار الرّمان أو "الآنار" كما يسمّيه الأفغان، ومن هذه القرية سلكنا الطّريق المؤديّة إلى الجبال حيث منطقة "كَانْشَا" هدف الزّيارة.

عند منتصف النّهار صرنا عند أسفل الجبال، فاسترحنا بعض الوقت في سوق شعبيّة خاصّة بالباشائي، يتجمّعون فيها من كلّ القرى الجبليّة ويبيعون ويشترون، وكانت فرصة مناسبة لتصوير عدد كبير من أبناء الباشائي وأشكالهم ولباسهم وبضائعهم التّي جلبوها معهم من الجبال.

واصلنا الرّحلة بعد ذلك وبدأنا الصّعود بالسّيارات عبر مسالك وعرة لنصل بشقّ الأنفس إلى أقرب نقطة ممكنة من منطقة "كانتشا" ومن هناك واصلنا السّير راجلين.

كانت المنطقة عبارة عن ثلاث قرى متجاورة، وهي أقرب مناطق الباشائي إلى الأراضي المنبسطة في ولاية كابيسا، وبعدها تتناثر قرى جبلية أخرى للباشائي حتى ولاية "لَغْمَان" المجاورة، ومن هناك تتزايد مناطق الباشائي في ولايات لغمان وكونار ونورستان.

استقبلَنا أهل القرية الوسطى، حيث بيت محمود وصهره الحاجي، ومن هناك بدأنا التّصوير فورا فلم نكن نرغب في المبيت لبرودة الجوّ من جهة، ولحالة النّاس المتواضعة جدّا وحرصنا على عدم تكليفهم مؤونة طعامنا ونومنا.

مرافقنا الحاجي عبد المنّان كان شيخا أبيض اللّحية والشّعر قد قارب السّبعين من عمره، ويتحدّث العربية بقدر معقول، وكانت فكرة التّقرير التّي أعددتها في ذهني تعتمد في أجزاء منها على حوار مصوّر مع الحاجي وهو يتحدّث عن تاريخ المنطقة والإشكاليّة اللّغوية ومسائل أخرى، لكنّ الرّجل استعجل الأمر ولم يستطع إخفاء ولعه بالكاميرا وبريقها إلى أبعد الحدود، حيث طلب منّي، ونحن نقطع الجسر الذّي يعتبر حدّا فاصلا بين ولايتي كابل وكابيسا، أن أصوّره هناك وهو يتحدّث عن المنطقة، فلمّا أخبرته أنّ الحوار معه سيكون فقط في المناطق الجبليّة، ردّ بأنّه شاهد في التلفزيون الباكستانيّ تقارير على شاكلة ما اقترحه عليّ.

وفي بداية التّصوير، وقبل محاورة الحاجي، طلبتُ من المصوّر أن يسارع إلى التقاط مشهد امرأة من "الباشائي" كانت تأخذ قسطا من الرّاحة على صخرة وقربها كيس من القمح، ولمّا أرادت القيام من جديد كانت في حاجة إلى من يساعدها على وضع الكيس فوق ظهرها، فبادر الحاجي إلى ذلك حتّى يظهر في المشهد، فأوقفتُ التّصوير وحاولت إفهامه أنّ ذلك سيكون خللا أو عيبا في التّقرير، وهو أن يظهر شخص واحد في أكثر المشاهد، وكأنّ التقرير خاص به أو أنّنا لم نجد ما نصوّر غيره، فبدا عليه الغضب، لكنّه سكت على مضض.

صوّرنا البيوت المتواضعة المشيّدة بحجارة الجبال الصّماء، ودخلنا أحد المساكن العاديّة جدا، وهناك التقطنا مشاهد للمتاع والأثاث الداخليّ، وكان غاية في البساطة، وربّما تسابق الهواة لاقتنائه لو عُرض في مزاد عامّ بدولة متقدّمة وعُرّف على أنّه من آثار القرون الميلادية الأولى.

حاورنا بعد ذلك حاجي عبد المنان بصفته مُلمّا بتاريخ أفغانستان والمنطقة، فكشف لنا عمّا يعتقده هو وقومه من أنّهم في الأصل أوروبيون، وأنّهم من بقايا جيش الإسكندر المقدونيّ الذّي عبَر أفغانستان قبل الميلاد.

مرافقنا محمود جل رحمن هو أيضا أكدّ على الأصل الأوروبيّ لأبناء منطقته، وأشار إلى العيون الزّرق والشّعر الأشقر الذّي يتميّز به أبناء وبنات الباشائي عن غيرهم من الأفغان، وحتّى الجمال، ليس أفغانيا عاديّا بل هو جمال إغريقيّ على حدّ قول رفيقنا محمود، كما تحدّث عن عادات تميّز القوم وتربطهم بأصلهم الإغريقيّ، ومنها الأكل وقوفا، أو بشكل منفرد، أو الجلوس على الكراسي أثناء الأكل رغم ما يصاحب الحياة من فاقة وفقر.

وحدّثنا حاجي عبد المنّان عن محاولة جارية لكتابة لغة الباشائي، لتصبح ضمن اللّغات الأفغانية المكتوبة وتأخذ حظّها من الاهتمام والتّطوير، وحدث بين مثقّفي الباشائي جدل حول الأبجديّة التّي يكتبون بها لغتهم، فقد حاول البعض أن يكتبها بالحرف اللاّتينيّ، مع أنّ الأفغان يكتبون لغاتهم بالحرف العربيّ، ويقول الحاجيّ إنّ الأغلبية اتفقت في النّهاية على الكتابة بالحروف العربيّة.

الحياة في مناطق الباشائي بسيطة جدّا وكثير من النّاس هناك لا يعرفون من العالم الواسع غير قراهم أو السّوق الأسبوعيّة في أسفل الجبل، ويعيشون، خاصّة النّساء، ويموتون دون أن يعرفوا شيئا عن العالم الخارجيّ.

بدأت الشّمس تميل نحو الغروب ونحن نتابع ونصوّر المناظر الجميلة من سطح أحد بيوت القرية، حيث يظهر لنا النّهر في الأسفل كجدول ماء صغير، وتصطفّ على سفوح الجبال أشجار خضراء شامخة،

كثيرا ما أثارت الشّجار وحتّى الاقتتال بين أبناء القرى المتجاورة، فهي أهمّ ثروات سكّان الجبال بأخشابها وحطبها.

عدنا أدراجنا قبل حلول اللّيل بعد أن ودّعَنا جمعٌ من أبناء القرية وأعيانها، وسلكنا نفس طريقنا الوعر فلا بديل عنه، وحثثنا السّير لكنّ الظّلام أدركنا أسفل الجبل، لنصل بعد ذلك إلى قرية "تَاجَاب"، ومن هناك أردنا مواصلة الطّريق نحو العاصمة كابل، لكنّنا عدلنا عن ذلك بعد أن لاحظنا وجود سيّارة مشبوهة تتابعنا وتترصّد تحرّكاتنا.

سألنا عن المركز الأمنيّ بالمنطقة وقصدناه وهناك عرّفهم حاجي عبد المنّان بنفسه وأنّه قاضي ولايتهم فخصّصوا لنا غرفة للمبيت بعد أن قدّموا لنا طعام العشاء وكان بسيطا للغاية وينُمّ عن ضعف التّمويل الذّي يصل إلى مراكز الحكومة في المناطق البعيدة عن كابل.

في الصّباح الباكر انطلقنا نحو العاصمة كابل عبر نفس الطّريق، وقبل وصولنا إلى طريق جلال آباد أصاب السّيارة عطل فأصلحه السّائق بشكل مؤقّت وعرجنا على سوق سُرُوبِي بحثا عن ورشة لإصلاح السّيارات، ومن هناك انطلقنا نحو كابل.

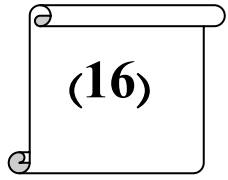

(16) قندهار... خير وخيرات

في مطلع عام 2003 أعلنت القوّات الأمريكيّة أنّها بدأت عمليّة واسعة ضدّ عناصر طالبان قرب الحدود الباكستانيّة الأفغانيّة بولاية قندهار جنوبيّ أفغانستان، وكانت العمليّة هي الأكبر منذ عملية "أَنَاكُونْدَا" في ولاية "بَكْتيَا" شرقيّ أفغانستان ربيع عام 2002.

طلب منا "قسم المراسلين" التّحرك نحو قندهار في أسرع وقت ممكن، فخرجنا من كابل بعد صلاة العصر لنسلك طريق كابل – قندهار "سيّئ السّمعة" حيث كان حينذاك في أقصى حالات الخراب، فجسوره مدمّرة وأرضيّته بين حفر ونتوءات وصخور عدا كيلومترات معدودة، وكانت السّرعة القصوى الممكنة، خاصة للسيّارات المحمّلة بالبضائع، لا تتجاوز الأربعين كيلومترا في السّاعة.

حلّ علينا الظّلام ونحن ندخل ولاية "غَزْنِي" فقرّرنا المبيت ولم يكن أمامنا خيار غير ذلك، فجميع السّيارات والشّاحنات تتوقّف في اللّيل خوفا من قطّاع الطّرق، كما أنّ حظر التّجوال ليلا ما زال ساريا.

دخلنا فندقا ومطعما متوسّط الحال لكنّه يعدّ الأرقى بمقاييس المنطقة، واستأجرنا غرفة واحدة للنّوم بها أربعة أسرّة، ولم يكن ذلك تقشّفا منّا، لكنّها الغرفة الوحيدة التّي كانت شاغرة.

جلسنا في قاعة الطّعام الواسعة، فالمكان مطعما أكثر منه فندقا، وكان الكثير من المسافرين وسائقي الشّاحنات يتابعون جهاز التّلفاز،

فالفندق مزوّد بالكهرباء عبر محرّك يُشغّل عند حلول الظّلام ويُطفأ عند النّوم.

لم يكن روّاد المطعم وأصحابه يعرفون العربيّة، ومع ذلك كانوا يتابعون نشرة أخبار قناة الجزيرة، ولم يطل الوقت ليعرف أصحابُ المطعم وروّاده أنّنا فريق الجزيرة فالتفّوا حولنا يسلّمون علينا ويمطروننا بكثير من الأسئلة ومن ذلك وجهتنا في صباح اليوم التّالي، وكان من واجب الحيطة والحذر ألاّ نخبرهم بذلك فأوهمناهم أنّنا في طريقنا إلى كابل.

قام المصوّر بالتقاط مشاهد للمسافرين وهم يتابعون أخبار الجزيرة، ولم يفت القوم أن يسألوا بإلحاح عن موعد بثّ تلك المشاهد ليفوزوا برؤية أنفسهم على شاشة الجزيرة.

في آخر اللّيل، وقبل الفجر بثلاث ساعات، تحرّكنا من فندقنا باتّجاه قندهار لنفاجأ بنقطة تفتيش في بوّابة المدينة تطلب منّا العودة؛ فوقت حظر التّجوال يستمرّ إلى الخامسة فجرا. أخبرناهم أنّنا فريق صحفيّ فطلبوا منّا التوجّه إلى مركز الشّرطة للحصول على إذن خاص، فأوهمهم السّائق أنّنا في طريقنا إلى المركز، ثمّ تجاوز نقطة التّفتيش عبر طريق فرعيّ.

كانت الطّريق موحشة حقّا، ولكثرة الحفر لم تكن السّرعة ممكنة، فمشينا أكثر من ساعة ونصف في ظلام دامس دون أن تلحق بنا سيّارة أو تقابلنا شاحنة قادمة من الاتّجاه المعاكس، وشعرتُ حينها بخوف شديد، ولم أخبر أفراد الطّاقم بذلك، ويبدو أنّ الشّعور كان عامّا لكنّ أحدا لم يتجرّأ على الإفصاح عنه، وهكذا تجلّدنا وتصنّعنا الشّجاعة والإقدام.

كانت قيادة السّيارة في طريق قندهار مرهقة للغاية، ورغم أنّ سائقنا البشتوني (تاج جل) متمرّس بمثل هذه الطّرقات فقد بدا عليه التّعب فبادرتُ أكثر من مرّة إلى مساعدته ليستريح بعض الوقت، إلى أن وصلنا قندهار

قبيل الغروب بوقت قصير، فحجزنا غرفتين في (جِهَان هُوتِل) وكان فندقا مقبولا إلى حدّ ما، كما وجدنا فيه قدرا طيّبا من التّقدير والرّعاية والتّسهيلات المتوفّرة.

سافرنا في صباح اليوم التّالي مباشرة إلى منطقة (سْبِينْ بُولْدَك) الحدوديّة مع باكستان وهناك قابلنا بعض القادة المحلّيين وحاولنا الحصول على معلومات عن العمليّات القتاليّة الدّائرة قرب منطقتهم لكن دون جدوى؛ فالأمر برمتّه كان بأيدي القوّات الأمريكيّة. حاولنا في طريق العودة الاقتراب من مسرح العمليّات ما استطعنا، ولم نشاهد سوى طائرة عموديّة تحوم حول أحد الجبال وسمعنا أصوات مدافع متقطّعة تأتي من بعيد.

في اليوم الثّاني مررنا في طريقنا إلى (سْبِينْ بُولْدَك) بمطار قندهار حيث القاعدة الأمريكيّة المعروفة، ودخلتُ بالسيّارة وحيدا، حيث منع حرّاس البّوابة دخول معدّات التّصوير، وطلبتُ مقابلة المسؤول الإعلاميّ، فلمّا حضر عرّفته بنفسي وبالجهة التّي أعمل لصالحها، وسألته عن إمكانية مرافقة القوّات الأمريكيّة إلى الخطّ الأوّل للقتال، فأعتذر بأنّ ذلك لا يدخل ضمن صلاحياته، وأنّ علينا ترتيب الأمر مع قيادة القوّات الأمريكية في قاعدة (بجرام) شمال العاصمة كابل.

لم نيأس من إمكانية الحصول على أخبار خاصّة عن العمليّات العسكريّة الجاريّة، وواصلنا المسير إلى المنطقة الحدوديّة، لنتلقّى في منتصف الطّريق اتصالا هاتفيّا من غرفة الأخبار في الدّوحة يخبرنا عن انفجار لغم أرضيّ تحت سيّارة نقل مدنيّة في مدينة قندهار خلّف ثمانية عشر قتيلا حسب إحدى وكالات الأنباء.

قرّرنا العودة من حيث أتينا ومتابعة وتصوير الحدث، وتوقّفنا في الطّريق لبعض الوقت حيث تحدثتُ عبر الهاتف أثناء إحدى نشرات الأخبار

وعلّقت على حادثة الانفجار مركّزا على الخلفيّات والتّناقضات التّي تشهدها الولاية وأفغانستان عموما.

حالما وصلنا إلى مدينة قندهار بدأ السّائق البحث والتقصّي عن مكان الانفجار أو أيّ صوت غير عادي سُمع هنا أو هناك، ولأنّ المدينة مترامية الأطراف وأصوات الانفجارات لا تمثّل شيئا غريبا لأكثر القندهاريين؛ فقد قضينا أكثر من ساعتين طفنا خلالهما أكثر أحياء المدينة تبعا لإرشاد أشخاص كنّا نسألهم وبدا لاحقا أنّهم يخمّنون فقط دون علم، فعادة "لا أعرف، لا أدري" لا وجود لها في قاموس أكثر الأفغان.

أثناء عملية البحث توقّفنا عند مجموعة من عناصر الأمن يحرسون بوّابة المستشفى الكبير بالمدينة، ولأنّ السّاعة قاربت الثّانية عشر فقد تناول الجماعة طعامهم وجلسوا على الأرض، حيث وضعوا أسلحتهم جانبا وشرعوا في تبادل أطراف الحديث وتناول الشّاي الأفغانيّ كما جرت العادة.

اقترب السّائق منهم وبعد أن عرّفهم أنّنا فريق صحفيّ سألهم إن كانوا قد سمعوا صوت انفجار أو شاهدوا سيّارات تحمل الجرحى تدخل المستشفى، فبادروا بصوت شبه جماعي بلغة البشتو: (نِشْتَه خير وخيرات) أي لا شيء وكلّ شيء على ما يرام.

وعندما انطلقت السّيارة انفجرنا جميعا بالضّحك رغم أنّنا في طريقنا إلى تغطية مأساة بكلّ معنى الكلمة، والضّحك كان بسبب المفارقة، فالخبر قد طار إلى آخر الدّنيا، ووسائل الإعلام تتحدّث عن لغم أرضي وضع تحت سيّارة ركّاب عزّل، والمحلّلون ربّما تباروا في القراءة بين سطور الخبر، لكنّ ذلك كلّه لم يغيّر شيئا من برنامج الشّرطة القندهارية أمام بوابة المستشفى.

واصلنا البحث حتّى وجدنا أنفسنا في الضّواحي الجنوبيّة لمدينة قندهار بين الحقول والمزارع، وهناك لاحظنا سيّارة مدنيّة صغيرة تتقصّى أمرا ما مثلنا، تقترب منّا أحيانا وتبتعد أحيانا أخرى، وقد كان بجانب سائق السّيارة رجل أبيض اللّحية لم أشكّ في أنّه من أهل قندهار إلاّ عندما وصلنا إلى مكان الانفجار وبدأنا التّصوير.

ارتَبْتُ في أمر الرّجل وطبيعة مهمّته، وقد كان يرتدي لباسا أفغانيا ويحمل في يده كاميرا صغيرة يلتقط بها مشاهد للسّيارة المدمّرة. اقتربت منه وحدّثته ببعض الكلمات الفارسيّة فرد بالإنجليزية، فاستفسرتُ منه عن هويّته فقال إنّه أمريكيّ يعمل مع مؤسّسة خيرية، فتساءلتُ بيني وبين نفسي عن علاقة المؤسّسات الخيريّة بمثل الحادثة التّي نغطّيها، وعن سرّ شجاعة ومغامرة هذا الأمريكيّ في مناطق خطيرة مثل ضواحي مدينة قندهار.

(17) شاي الطّوارق في قندهار

قبل أن أزور ولاية قندهار جنوبيّ أفغانستان التقيتُ بمقرّ السّفارة اللّيبية في كابل بشابّ ليبيّ قال إنّه يعمل في عيادة طبيّة بمدينة قندهار تموّلها وتديرها جمعية الدّعوة الإسلامية العالميّة. وهذه الجمعيّة تتبع الحكومة اللّيبية، أو تتلقّى دعما منها على الأقلّ، ويرى البعض أنّها تقوم بدور ما في إظهار الوجه (الإسلاميّ) للزّعيم اللّيبيّ معمّر القذّافي ونظام حكمه في طرابلس الغرب.

وعندما سافرتُ رفقة طاقم الجزيرة لأوّل مرّة إلى مدينة قندهار مطلع عام 2003؛ كان ضمن برنامجنا زيارة العيادة الطّبّيّة اللّيبية لإعداد تقرير عنها، والتّواصل مع الطّاقم اللّيبيّ الموجود هناك، فقد كنتُ أسعد جدا بأيّ عربيّ ألتقيه في أفغانستان خاصّة إذا كان من إحدى دول المغرب العربيّ.

سألنا عن مقرّ العيادة الطّبّيّة اللّيبية ولم تكن بعيدة عن فندق (جهان هوتل) الذّي نقيم فيه وسط مدينة قندهار، وقمنا بزيارتها وتفاجأنا بأنّ جميع الموظّفين اللّيبيين قد غادروا إلى ليبيا أو باكستان، وبقي موظّف واحد فقط يدعى حسين شعيب.

رحّب بنا حسين كأيّ ليبيّ أو عربيّ ما زال يتمسّك بشيم الضّيافة الأصيلة، وجلسنا نتحدّث عن الوضع في قندهار والعيادة الطّبية والدّور الذّي تقوم به في خدمة المرضى، وعلمنا أنّها كانت تنشط في المنطقة أيّام طالبان ثمّ توقّفت أثناء الحملة الأمريكيّة على أفغانستان وعادت بعد ذلك من جديد لسابق نشاطها.

تجوّلنا في العيادة وصوّرنا المرضى المراجعين وعمليات الفحص والمعاينة التّي يقوم بها الطّبيب الأفغانيّ المناوب، وصيدلية الدّواء والأجهزة الطّبية التّي تتوفّر عليها العيادة، ودخلنا غرفة الإدارة حيث جلس حسين وراء مكتبه ليواصل شرح دور عيادته وعلاقتها بالسّلطات المحليّة في قندهار.

جلتُ بعيني في الغرفة لأدرك دون عناء كبير أنّ الزّعيم اللّيبيّ معمّر القذّافيّ حاضر معنا، فقد كانت صورته مثبّتة على الجدار وكُتِب تحتها بخطّ واضح: (حكيم أفريقيا معمّر القذّافيّ)، فقلت في نفسي افرح أيّها الزّعيم فهاهو نفوذك قد وصل إلى معاقل البشتون، بعد أن جالت صورك وأموالك وصالت في مجاهل وأدغال أفريقيا. والحقيقة أنّ الرجل، أو ابنه سيف الإسلام على الأقلّ، قام بدور إيجابيّ في ترحيل الأطفال والنّساء العرب، وحتى بعض الرّجال، الذيّن كانوا يعيشون في الأراضي الأفغانية خلال عهد طالبان وهربوا إلى باكستان بعد الحرب الأمريكية على أفغانستان.

كان حسين قد أحضر معه الشّاي الأخضر من ليبيا وأحضر أيضا إبريقا وكؤوسا صغيرة على شاكلة تلك التّي نعرفها في المناطق الصّحراوية ومناطق الطّوارق الجزائرية على وجه الخصوص، وخلال زيارتنا الثّانية للرّجل في الجناح المخصّص لإقامة الموظّفين بالعيادة؛ قام بإعداد الشّاي لنا بنفس الطّقوس الصّحراوية التّي تعتمد على سعة البال والبطء والنّار الهادئة، إلى أن أصبح الشّاي جاهزا للشّرب فقدّم لي كأسا، وقدم كؤوسا لفريق عملي المكوّن من السّائق (تاج جل جاجي) والمصوّر (ناصر شمس الدّين) ومهندس الاتّصال (عبد القهار خان).

استغرب الأفغانُ من الحجم الصغير لهذه الكؤوس وكميّة الشّاي القليلة التّي بداخلها، لكنّهم بعد أن تذوّقوها أدركوا أنّها نوع آخر من الشّاي غير الذّي يعرفون، ولم يستطع بعضهم إكمال شرب كأسه.

والشّاي عند الأفغان شيء آخر غير ما نعرفه تماما، حيث يُغلى الماء في إبريق كبير وتوضع فيه كمّية قليلة من مادّة الشّاي ثمّ توقف النار مباشرة، فيبدو الشّاي أشبه بالماء، ويشربونه في الغالب دون سكّر حيث يتناولون معه ما توفّر من الحلوى أو التّوت المجفف، وقد شربتُ مرّة الشّاي في مقهى على طريق كابل جلال آباد فمزحتُ مع مصوّرنا (حِشْمَتُ الله فَيْضِي) قائلا إنّ هذا الشّاي يصحّ به الوضوء فقال كيف ذلك..؟، قلت: لم يتغيّر طعمه ولا لونه ولا رائحته.

وفي الفترة التي قضيناها في قندهار خصّصنا يوما لزيارة ولاية هِلْمَنْد المجاورة واصطحبنا معنا حسين اللّيبي الذّي صار صديقا لنا، وكانت رحلة رائعة رغم المخاطر التّي كانت متوقّعة في أيّ لحظة.

كانت الطّريق والمناطق التّي مررنا بها صحراوية بالكامل وكانت قطعان الجمال تبدو لنا من حين لآخر، فتذكّرنا، أنا وحسين، بصحرائنا الكبرى في ليبيا والجزائر.

وصلنا (لَشْكَر جاه) عاصمة ولاية هلمند عند منتصف النّهار، وكانت مدينة متواضعة، ولا تتجاوز حجم قرية كبيرة، وهناك بحثنا عن مطعم يبدو عليه بعض التّميّز لنتناول فيه طعام الغداء، فلم نعثر على ذلك إلا بصعوبة بالغة، ولم يكن قصدنا من وراء ذلك سوى النّظافة، فالمطاعم الصّغيرة العاديّة تقدم أطعمة بأسعار منخفضة، وبذلك قد تتهاون في معايير النّظافة والوقاية الصّحية.

وبعد الطّعام اتّجهنا نحو قلعة أثريّة خارج المدينة تُسمّى (قلعة بست) فوصلناها عبر طريق وعر، لنفاجأ بصرح أثريّ نادر جدّا يعود أوّلُ

بنائه إلى ما قبل ألفين وخمسمائة عام، وتحديدا إلى أيّام حكم الأكاسرة في بلاد فارس الذّين بسطوا نفوذهم على المنطقة قبل الفتح الإسلاميّ.

كانت القلعة كبيرة لكنّ أسوارها تهدّمت بشكل شبه كامل، وبقي من أهمّ أثارها بئر عجيبة البناء، فهي تقع على ربوة عالية، لكنّها عميقة وتصل إلى مستوى مياه النّهر القريب من القلعة. وقد شُيدت البئر بهذه الطّريقة لتستفيد منها القلعة خلال حصار المهاجمين لها.

يبلغ قطر البئر قرابة العشرة أمتار وقد بنيت بالآجر الأحمر، ويحيط بها من أربع جوانب سلالم تنزل تدريجيا حتّى الأسفل، حيث يستطيع أهل القلعة النّزول إلى مستوى المياه الأرضيّ وملء ما معهم من آنية والصّعود من جديد بما يحملون عبر السّلالم إلى الأعلى دون عناء كبير.

وتحت الهضبة تقف بناية شامخة أشبه ما تكون بقوس نصر، قيل لنا إنّها بنيت في عهد كسرى أنو شِروان الملك الفارسيّ العادل الذّي حكم الإمبراطورية الفارسية بين عامي 531 و 579م. وخوفا على هذا القوس من السّقوط أُسند بجدران جديدة في عهد حكومة السّردار داوود خان الذّي تولّى الحكم في كابل عام 1973.

التقطنا صورا للقلعة التّاريخية ومشاهد أخرى من الولاية وحاولنا الخروج قبل أن تغرب الشّمس، خوفا من مخاطر الطّريق بين (لشكر جاه) والطّريق الرّئيسيّ الرّابط بين هرات وقندهار، وقد شعرتُ فعلا بخوف شديد أثناء اجتياز تلك المسافة، فقد كانت الشّمس توشك على المغيب، وكان السّائق قد أخبرني أنّ قطّاع الطّرق يظهرون من حين لآخر في هذه المناطق خاصة عند المواضع السّيئة من الطّريق حيث لا يستطيع السّائق الانطلاق بسرعة عالية.

ومما زاد من خوفي أنّني كنت أنظر إلى السّائق من حين إلى آخر وأرى القلق والخوف باد على وجهه، وكان يقتصد في الحديث معي والإجابة

عن أسئلتي رغم أنّه كثير الكلام في العادة، ورغم أنّه بشتوني متمرّس في الأسفار ولا يأبه كثيرا بالمخاطر.

وبحمد الله وصلنا إلى الطّريق الرّئيسيّ عند المغرب مباشرة وبعد أن تنفّسنا الصّعداء واصلنا طريقنا إلى مدينة قندهار فأدركناها بعد آذان العشاء بقليل.

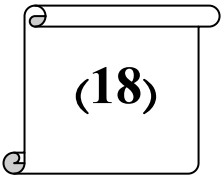

(18) رسالة من كارزي إلى الملاّ عمر

عندما كنّا في ولاية قندهار مطلع عام 2003، وفي إحدى المرّات التّي زرنا فيها العيادة الطّبية اللّيبية في المدينة، التقينا بوزير سابق في حكومة طالبان الأولى التّي سبقت استيلاء الحركة على العاصمة كابل عام 1996.

وقد كانت مدينة قندهار هي العاصمة والمعقل الرّئيسي لحركة طالبان، ورغم انتقال العاصمة إلى كابل بعد ذلك، فقد ظلّت هذه المدينة هي المرجع الأساسيّ لكلّ تحرّكات ونشاطات الحركة لأنّ الملاّ عمر زعيم طالبان أو "أمير المؤمنين"، كما كان يعلن عن نفسه، ظلّ مقيما فيها، ويتابع جميع الشّؤون والقضايا ويستقبل ضيوفه المحلّيين والدّوليين هناك.

كان الوزير الذّي التقيناه وهو مولويّ (أي عالم دين) يحمل الجنسيّة الباكستانية، كما أخبرنا، إلى جانب الجنسيّة الأفغانية ويعيش في مدينة كويتا الباكستانية المحاذية لحدود ولاية قندهار، حيث يدير مؤسّسة خيرية محليّة تنشط في أفغانستان وباكستان، ويمارس أنشطة تجاريّة كما بدا من حديثه.

كان الرّجل كثير الكلام إلى درجة الثّرثرة، ويبدو أنّ علاقته الجيّدة مع من كان يمثّل حكومة حامد كارزي في قندهار جعلته يتحدّث معنا، دون تحفّظ أو خوف، عن مسائل سياسيّة معقّدة، وبعض خفايا حركة طالبان وعناصر وشخصيّات كانت تنشط في صفوفها ثمّ انضمّت إلى حكومة كارزي والتّيار الجديد الذّي جاء مع "العهد الأمريكيّ".

ومن بين ما قصّه علينا الرّجل أنّ الرّئيس الأفغانيّ حامد كارزي، حين كان على وفاق مع حركة طالبان، طلب من الملاّ عمر زعيم الحركة أن يسلّمه وزارة الخارجية في حكومة طالبان النّاشئة، وسيضمن له اعتراف العالم كلّه بهذه الحكومة.

استغربتُ في البداية من هذه القصّة وتصورتُ أن قبول المستحيل أسهل عليّ من تصديقها، فكارزي لم يوفر مناسبة عامّة أو خاصّة إلاّ وأظهر عداوته لطالبان وفكرها ومنهجها، وكيف لا يكون كذلك وهو العقل المدّبر والمنفّذ في المشروع الأمريكي الذّي جاء على أنقاض حكومة طالبان.

ولم يخرجني من حيرتي إلاّ حديثا دار بعد ذلك بيني وبين الفريق الأفغانيّ الذّي يعمل معي، أكّد لي أن هذا الكلام ليس مستحيلا، فقد رووا لي حكايات طويلة عن قادة وزعماء أفغان كبار، فضلا عن القادة الصّغار، غيّروا ولاءاتهم من أقصى اليمين إلى أقصى الشّمال، وفي فترات زمنيّة قياسيّة، ودون مكاسب عظيمة ومميّزة قد تكون مبرّرا لما أقدموا عليه.

فالجنرال الأوزبكيّ عبد الرّشيد دوستم مثلا كان مع القائد أحمد شاه مسعود في كابل منذ سقوط الحكم الشيوعيّ عام 1992، وفيما كان مسعود يقاتل بكلّ شراسة خصمه التّقليديّ العنيد قلب الدّين حكمتيار زعيم الحزب الإسلاميّ؛ مثّل دوستم رأس الحربة في هذه الحرب عبر مليشياته الأوزبكيّة التّي اشتهرت بشراسة القتال والقسوة وإرهاب الأهالي بما شاع عن عناصرها من استباحة لكلّ المحرّمات، وسطو واستيلاء على كلّ شيء تجده أمامها، حتّى إنّها كانت تسمّى عند الأهالي مليشيات (جلم جمع)، وتعني جمع البساط أو الفراش أو السّجاد بما حمل، فليس عند رجل المليشيات، كما حدّثني بعض الأفغان، وقت ليفرّق بين ما يحتاج ولا يحتاج، إنّما يبادر إلى جمع البساط بما فيه ويسارع إلى مغادرة البيت أو المكان الذّي ينهبه دون أن يترك فيه شيئا يمكن أن يستفيد منه بشر أو حيوان.

كان حكمتيار يصر على أنّ الحرب التّي يخوضها ضد مسعود وحكومة المجاهدين التّي يرأسها برهان الدين رباني ليست لمصالح حزبية أو حسابات إقليمية، بل بسبب المليشيات الأوزبكية في كابل، وهي التّي كانت قبل استيلاء المجاهدين على كابل تقاتل إلى جانب نظام الحكم الشّيوعيّ، ولعبت دورا مهمّا في إنقاذه من السّقوط والاندثار أكثر من مرّة.

وفجأة انقلبت الموازين وتحوّل دوستم ومن معه من المليشيات إلى صفّ حكمتيار ليقاتل حليفه السّابق أحمد شاه مسعود ومن معه، وبين ليلة وضحاها تغيّرت مواقع القتال وأدار دوستم "ظهر المجن" لمسعود، وغيّر حكمتيار آراءه الفقهية، حيث كان يرى في قتاله السّابق لدوستم جهادا في سبيل الله يتماثل تماما مع جهاده السّابق ضدّ الحكومة الشّيوعية والجيش السّوفيتيّ.

وممّا كان معروفا عن حكمتيار أيضا عداوته الشّديدة لإيران، لكنّه لجأ إليها بعد ذلك وأقام فيها فترة من الزّمن بعد أن فقد مناطق نفوذه في أفغانستان على يد طالبان عام 1996، وبعد أن أدرك أنّ باكستان تخلّت عنه لصالح طالبان اللاّعب الجديد والنّشيط في السّاحة الأفغانية.

قصّة أخرى سمعتها في قندهار وقال الذّي رواها لي من الأفغان إنها "أشهر من نار على علم" بين القندهاريين، ومفادها أنّ الرّئيس الأفغاني حامد كارزي، وبعد أن تولّى مقاليد الحكم في كابل، أرسل رسالة إلى الملاّ عمر زعيم طالبان المختفي قائلا: لقد رفضتَ تسليم أسامة بن لادن للأمريكيين ولم يكن أفغانيا، فهل تظنّ أنّني سأسلّمك إليهم وأنت أفغانيّ، فدعنا في حالنا ندعك في حالك.

وقد يصعب التّأكد من صحّة هذه الرّسالة، كما يصعب تصديق الوزير سابق الذّكر حول طلب كارزي تسليمه وزارة الخارجيّة في حكومة

طالبان؛ لكنّ ما يعرفه الأفغان والدّارسون لتاريخهم أنّ هناك قولا مفاده أنّك تستطيع تأجير الأفغانيّ لكنّك لن تستطيع شراءه.

وهذه المقولة ظهرت بجلاء في تصوّري خلال العقود الأخيرة من تاريخ أفغانستان المعاصر، فسنوات الجهاد ضدّ القوّات السّوفيتية، وسنوات الحرب الأهليّة، ثمّ حكم طالبان كلّها صدّقت المقولة سالفة الذكر، فجميع الفرقاء في أفغانستان قاتلوا بأموال أجنبيّة، وإن كانت البدايات بريئة في كثير من الأحيان.

فالجهاد ضدّ الحكومة الشّيوعية والتّدخل السّوفيتيّ بدأ أفغانيا خالصا، وعندما قويت شوكة المجاهدين وأظهروا بطولات عالية، وثبتوا أمام جحافل القوّات السّوفيتية لعدّة أشهر، بدأت الولايات المتّحدة الأمريكية وأعداء الشّيوعية في كلّ مكان تحرّكاتهم للتدخّل لصالح المجاهدين، بعد أن كانوا يراقبون الوضع من بعيد ويوازنون بين حسابات الرّبح والخسارة.

وحتّى حركة طالبان بدأت بريئة في الأيّام والأشهر الأولى، فلم تكن سوى ردّ فعل على التّجاوزات الأخلاقية والفتن والمظالم التّي انتشرت في ولايات الجنوب الأفغانيّ خاصّة ولاية قندهار، فلمّا حقّقت الحركة أوّل انتصاراتها على لوردات الحرب في أجزاء من قندهار، كانت المخابرات الباكستانية جاهزة لتتولّى بقية المهمّة من دعم وتسليح وتوجيه وإرشاد وتخطيط.

والسّؤال الذّي قد يطرح نفسه على ضوء القول السابق، هو إن كان الرّئيس حامد كارزي والذّين معه في الحكومة الحاليّة في أفغانستان، مجرّد أُجَرَاء قد يغيّرون قبلتهم يوما ما إذا ما تخلّى عنهم البيت الأبيض أو تغيّرت موازين القوى والمصالح في المنطقة والعالم..؟ أم أنّ "الزّمن الأمريكي" الكاسح والعولمة المتوحّشة أفقدت ذلك القول مصداقيته وصار الأفغانيّ يُباع ويُشترى تماما كما هو الحال بالنّسبة لشعوب كثيرة في عالم اليوم.

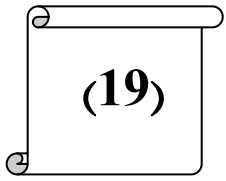

(19) الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة

يصل طول الحدود المشتركة بين أفغانستان وباكستان إلى قرابة ألفين وخمسمائة كيلومتر، أغلبها جبال شاهقة ووديان سحيقة، ويسكن الحدود من الجانبين قبائل بشتونيّة مسلّحة في أغلب الأحيان، شديدة المراس وشرسة الطّباع.

عدد من وزراء حكومة حامد كارزي خاصّة المناوئين لباكستان كانوا يستغلّون كلّ مناسبة ليتّهموا دولة باكستان الجارة الشّرقية بالتّساهل في ضبط الحدود والسّماح لعناصر طالبان بالتّسلّل عبرها والقيام بعمليات عسكريّة ضدّ القوّات الأمريكية وعناصر الجيش الأفغانيّ والعودة بسلام وأمان إلى باكستان.

الحكومة الباكستانيّة كانت تؤكّد، في ردّها بعد كلّ اتّهام أفغانيّ، على أنّها تبذل ما في وسعها لضبط هذه الحدود لكنّ المسألة فوق طاقتها، فأين هي تلك الدّولة التي يمكنها ضبط حدود طبيعيّة طويلة مثل التّي بين باكستان وأفغانستان، ويضرب الباكستانيّون مثلا بالولايات المتّحدة الأمريكية التّي تعاني، رغم إمكاناتها الضّخمة، من تسلّل رعايا دول أمريكية لاتينية عبر حدودها مع المكسيك.

ويتحدّث الكثير من المحلّلين والعارفين بالشّأن الأفغانيّ الباكستانيّ عن الحدود الطّويلة الصّعبة ودورها في حماية عناصر القاعدة وطالبان وفشل القوّات الأمريكية في القبض على أسامة بن لادن وأقرب معاونيه

الذّين اختفوا تماما عن أنظار جواسيس وعملاء المخابرات الأمريكية منذ سقوط دولة طالبان أواخر عام 2001.

وقد حدّثني الزّميل بكر عطياني، مراسل قناة العربيّة في باكستان، عن تلك الحدود عندما زارها سابقا ضمن وفد صحفيّ بترتيب مع الجيش الباكستاني. الزّيارة كانت في وضح النّهار طبعا، وصعد الصّحفيّون رفقة عناصر الجيش إلى أماكن شاهقة حيث نقاط المراقبة الباكستانيّة، وحسب الزّميل بكر، فإنّ الواقف على إحدى القمم الجبليّة، أو المرابط في نقطة حراسة لن يتمكّن بسهولة ويسر، خلال النّهار، من التّفريق بين المارّة في الوديان السّحيقة إن كانوا رعاة أو من أهل القرى الحدوديّة، أم من الغرباء، فكيف هي الحال عند حلول اللّيل وظلامه الدامس..؟

زيارة الزّميل الصّحفيّ كانت قبل عدّة أشهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر على نيويورك وواشنطن وما ترتّب عليها بعد ذلك من أحداث في أفغانستان، ومع ذلك يؤكّد هذا الزّميل أنّ أغلب عناصر الجيش الباكستانيّ الذّين رافقوهم خلال الجولة الصّحفية لم يخفوا تعاطفهم وإعجابهم بأسامة بن لادن رغم أنّهم من سكّان إقليم "البنجاب" وليسوا من مناطق البشتون الحدودية. إذن فهي حدود وعرة وطويلة وأغلب الذّين يقومون على حراستها ومراقبتها متعاطفون مع طالبان والقاعدة، أو غير متحمّسين لقتالهم واعتراض طريقهم على الأقلّ.

وقد تحدّثت بعض التّقارير الصّحفية عن هذه المناطق وأوردت روايات عن أدِلاّء خبراء يعرفون المسالك الوعرة بين سلسلة جبال "سْبِينْ غَرْ" قرب مدينة جلال آباد شرقيّ أفغانستان ومناطق القبائل البشتونيّة داخل الحدود الباكستانيّة، وكشفت هذه التّقارير كيف هرّب هؤلاء الأدلاّء عناصر

القاعدة بعد معركة "تُورَه بُورَه" الشّهيرة التي أعقبت سقوط طالبان على يد القوّات الأمريكيّة.

وأبناء قبائل البشتون المقسّمة بين باكستان وأفغانستان لا يعترفون بالحدود الحاليّة بين البلدين الجارين، وكثير منهم يملكون الهويّتين الأفغانية والباكستانية ويتنقّلون بحريّة بين الحدود ويملكون بيوتا وأعمالا هنا وهناك، ويجاهر بعضهم بالقول إنّ حدود أفغانستان الحقيقيّة هي "أَتَك" حيث النّهر الذّي يفصل بين إقليم البنجاب، أغنى وأكبر الأقاليم الباكستانية، وإقليم الحدود الشّمالية الغربية وعاصمته بيشاور.

والقصّة تعود إلى أيام الاحتلال الانجليزيّ للهند حين استولت بريطانيا على جزء من الأراضي الأفغانيّة عبر اتفاقية وقّعتها مع حكومة أفغانستان عام 1893، وتقضي بضمّ مناطق أفغانيّة إلى الهند على أن تعود إلى أفغانستان بعد مائة عام. وقد انتهى الأجل عام 1993 لكنّ الأفغان لم يكونوا في وضع قويّ يؤهّلهم للمطالبة بأراضيهم التّي صارت جزءا من باكستان بعد انقسام شبه القارّة الهندية، أمّا باكستان فقد غضّت الطّرف عن هذا الأمر فليس من مصلحتها أن تفقد شيئا من أراضيها.

وعلى طول الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة ينتشر عدد من البّوابات الكبيرة والصّغيرة أشهرها بوابة طُورْخَم التّي تربط مدينة جلال آباد الأفغانية بإقليم الحدود (سَرْحَد) الباكستانيّ، وبوّابة "تْشَامَان" التّي تربط ولاية قندهار الأفغانية بمدينة "كْوِيتَا" البّاكستانية عاصمة إقليم بلوشستان، وبوّابة "نَوَابَاس" التّي تربط ولاية كُونَار الأفغانية بمنطقة "بَجَاوَر" القبليّة الباكستانيّة.

وقد شهدت بوّابة طورخم انضباطا ملحوظا في عهد حكومة الرّئيس حامد كارزي، وصار الكثير من الأفغان يغادرون أو يعودون إلى بلادهم بواسطة جوازات السّفر الأفغانية، أمّا في بوّابات أخرى أقلّ شهرة وأهميّة

وأبعد عن مراقبة الحكومة في العاصمة كابل، فالحال ظلّ كالسّابق في أغلب الأحيان؛ حدود شكليّة فقط.

وعندما زرتُ الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة مرّة خلال عام 2003 وتحديدا في منطقة (تْشَامَان) التّي تربط ولاية قندهار بإقليم بلوشستان الباكستانيّ أدركتُ أنّ ما يتحدّث عنه الإعلام الخارجيّ، وما يصرّح به المسؤولون الباكستانيّون مجرّد أوهام وأنّ الأمر أكبر من الضّغط الأمريكيّ على باكستان، وخارج نطاق قدرات وإمكانيات الحكومة الأفغانيّة.

قرية (تْشَامَان) تقع على سهل منبسط على الحدود الدّوليّة الأفغانيّة الباكستانيّة، وهي قسمان باكستانيّ وأفغانيّ، وفي الجانب الأفغانيّ الذّي زرناه وجدنا كلّ شيء باكستانيّا تقريبا: العملة والسّلع ولوحات ترقيم السّيارات، وحتّى التّوقيت، حيث تسبق باكستان أفغانستان بنصف ساعة.

كان برفقتنا أحد حرس الحدود الأفغان أرسله معنا قائد المنطقة الأفغانية، فتجوّل بنا حتّى وصلنا البّوابة الحدودية التّي كانت مغلقة فعلا، لكنّ النّاس يمرّون بحريّة من مكان آخر قريب منها، لا تخطئهم العين وهم يدخلون ويخرجون جماعات وفرادى، والأمر بالنّسبة لهم لا يعني شيئا، فتلك المناطق تتجانس كليّا في اللّغة والثّقافة والتّاريخ وحتّى الآلام والآمال والمصير المشترك.

ولأنّ ثقافة الحدود لم تكن راسخة عند مرافقنا رغم أنّه من حرس الحدود؛ فقد قادنا إلى فناء مسجد صغير يقع على الخطّ الحدودي تماما، نصفه من جهة أفغانستان والنّصف الآخر على التّراب الباكستاني، ومن داخل المسجد اجتزنا الحدود بسهولة وصرنا في الجهة الباكستانيّة، وبدأ المصوّر يلتقط مشاهد لبنايات وسيّارات وجنود من حرس الحدود الباكستانيّ بلباسهم التّقليدي الأشبه بلباس المليشيّات أو القبائل البشتونيّة.

جاءنا حارس أمن باكستانيّ وسلّم علينا بأدب وسأل عن مقصدنا، فأخبره مرافقنا أنّنا فريق صحفيّ من قناة الجزيرة، فقال سأخبر ضابط النّقطة بالأمر وأعود إليكم، وعندما غادر تفطّنتُ إلى الخطأ الذّي ارتكبته فيما لو عاملنا الضّابط معاملة قانونية بحتة، فطلبتُ من المصوّر العودة بسرعة إلى الجانب الأفغانيّ.

كان جواز سفري في جيبي لكنّني لم أكن أملك تأشيرة باكستانية ساريّة المفعول، وقلتُ في نفسي سيلومني الضّابط على الأقل، ويقول لي أنت أجنبيّ وتعرف القانون فكيف تدخل حدودا دوليّة دون إذن ولا تأشيرة.

وعندما صرتُ في الجانب الأفغانيّ لاحظتُ من وراء السّياج ذلك الشّرطيّ الباكستانيّ قد عاد إلى مكاننا، ولا أدري إن كان سيخبرنا بأنّ القائد في انتظارنا، أو ليؤنّبنا على تجاوزنا الحدود ويطلب منّا العودة من حيث أتينا.

(20) كُونَار.. النّهر الذي قتل الرّئيس

في مطلع شهر أبريل 2003، وبعد عودتي من إجازة في الدّوحة، قرّرتُ زيارة ولاية كُونَار شرقيّ أفغانستان، وهي إحدى الولايات الحدوديّة مع باكستان وذات أهميّة خاصة لموقعها الجغرافيّ وجبالها العاليّة الحصينة خاصّة المتّصلة بولاية نورستان الجبليّة المجاورة.

الولاية كانت مهمّة لنا من الناحيّة الإخبارية ولابدّ من معاينتها ميدانيا، وإنشاء علاقات مع المسؤولين الحكوميين فيها؛ فقد تنفجر فيها الأوضاع في أيّ لحظة، حيث كَثُر الحديث عن تحصّن زعيم الحزب الإسلاميّ المعارض قلب الدّين حكمتيار وقيادات القاعدة في جبالها الشّاهقة والوعرة، كما أنّ القوات الأمريكية أنشأت قاعدة عسكريّة كبيرة في الولاية بها قرابة ثلاثة آلاف جنديّ.

انطلقنا في الصّباح الباكر وكان علينا أن نمرّ عبر ولاية ننجرهار فالطّريق من هناك هو الأفضل والأكثر أمنا، ولم نجد مشقّة كبيرة في الوصول إلى جلال آباد عاصمة ننجرهار، فقد تحسّن وضع الطّريق كثيرا بعد أن شرعت الحكومة في إعادة تأهيله.

كان فريقنا يتكون من السّائق والمصوّر وصحفيّ أفغانيّ بشتونيّ اسمه عتيق الله آزاد من ولاية لَغْمَان المجاورة لـ كُونَار، كان على دراية بالمنطقة وعلى علاقة جيّدة بواليها الذّي عيّنه الرّئيس حامد كارزي قبل زيارتنا بوقت قصير.

بعد أن تجاوزنا مدينة جلال آباد بدأت الطّريق تسوء وكان علينا أن نسير مدّة ثلاث ساعات حتى نصل إلى مدينة أسعد آباد عاصمة كونار، تلك المدينة التّي ولد فيها العلاّمة المعروف جمال الدّين الأفغانيّ، وهناك دخلنا أحد المطاعم لتناول الغداء، ثمّ توجّهنا إلى مقرّ الولاية لمقابلة الوالي والتعّرف عليه.

كان مبنى الولاية متواضعا كعادة أكثر المباني الحكوميّة الأفغانيّة في المناطق البعيدة عن كابل، وهناك استقبلَنا الوالي ورحّب بنا ببعض الكلمات العربيّة التّي يعرفها، وكان شيخا أبيض اللّحية يبدو عليه النّشاط رغم تقدّم سنه.

بعد العصر خرجنا للتجوّل في المدينة ثمّ قصدنا إحدى الضّواحي، وتوغلّنا بالسّيّارة في الطّريق المؤديّة إلى منطقة يُقال لها (دَرَايْ بِيتْش)، وقبيل الغروب توقّفنا بجانب النّهر المحاذي للطّريق، وكان المنظر مغرياً بالمتابعة فالشّمس قد بدأت عملية التّسلّل اليوميّة بين الجبال العاليّة لتختفي وراء الأفق.

كان مظهرنا ملفتا للنّظر في تلك المنطقة، ولم يكن صعبا أن نجذب فضول النّاس ليتحدّثوا إلينا بمجردّ ردّ السّلام عليهم، وهكذا تبادلنا أطراف الحديث عن أوضاع الولاية مع ثلاثة من المارّة قال أحدهم إنّه يشتغل في جهاز أمن المنطقة التّي كنّا فيها.

تحدثتُ بعد ذلك إلى مجموعة من الأولاد مرّوا حولنا وسألتهم عن دراستهم، وداعبتهم قائلا ما رأيكم في حكومة بلادكم الحاليّة، ففاجأني أحدهم، وكان يدرس في الصفّ الخامس الابتدائي، بقوله: (دَا دِي أنْكرِيزَان حُكوُمَت)، أي هذه حكومة الإنجليز، وهو تعبير شائع في تلك المناطق

يُقصد به العدّو الأجنبيّ، فالإنجليز لهم تاريخ في مناطق الحدود الأفغانية الباكستانيّة.

عدنا بعد المغرب إلى مقرّ الولاية حيث كان الوالي ينتظرنا في غرفة الجلوس المتواضعة، فقد كان يعيش في كُونَار دون أسرته التّي خلّفها في كابل، وهو معلّم متقاعد كما عرفنا منه لاحقا، وأولاده مرتبطون بالدّراسة، والظّروف لا تتيح له نقل أسرته معه.

تحدّثنا مع الوالي طويلا وكان رجلا مرحا وظريفا، وبعد أن عرف أنّني من الجزائر حدّثني عن الرّئيس هواري بومدين وأحمد بن بلّة، وحدّثني أيضا عن جمال عبد النّاصر، ولأنّ الحرب الأمريكيّة على العراق كانت على أشدّها فقد أخذت قسطا من حديثنا، وكان من بين ما قاله لي الوالي إنّ هزيمة صدّام حسين مشكلة، ونصره أيضا مشكلة، وأضاف: إذا انهزم فهزيمته على الأمّة كلّها، وإذا انتصر فلن يترك جيرانه على حالهم.

في الصباح حاورنا الوالي حيث تحدّث عن مشاكل ولايته والتحدّيات التّي تواجهها، ووعدنا وهو يودّعنا بمساعدتنا إذا رغبنا في زيارة ولاية نورستان مستقبلا، وكرّر ترحيبه بنا في أيّ وقت نشاء.

كانت ولاية كونار من المناطق التّي احتضنت أعدادا من العرب الموالين لطالبان والقاعدة، وممّا سمعته هناك أنّ الجبال المطلّة على العاصمة أسعد آباد تؤوي عربيا يدعى (أبو إخلاص) متزوّج من امرأة بشتونيّة، ومعه عدد من المقاتلين العرب والأفغان، وقد كان قبل دخول القوّات الأمريكية إلى أفغانستان على علاقة حسنة بالأهالي والقادة المحلّيين.

وعرفتُ أيضا أنّ أحد العرب الذّين كانوا في كونار فقد عينيه عندما كان مع مسلّحين في مسجد حاصرته القوّات الأمريكية وهاجمته بالقنابل،

وعرفتُ أنّ الرّجل قد أُطلق سراحه بعد اعتقاله بعض الوقت لدى القوات الأمريكية، وهو يعيش مع أولاده وزوجته الأفغانية في أسعد آباد.

اصطحبتُ الصّحفيّ عتيق الله وبحثتُ معه عن بيت هذا العربيّ فعثرنا عليه دون عناء كبير، وبعد أن دققتُ الباب خرج طفل في الرّابعة عشر أو الخامسة عشرة من عمره يتكلّم عربية بها عجمة واضحة. تحدّثتُ معه فبدا عليه الخوف، فاستأذنتُ مرافقي وانتحيتُ به جانبا، وقلتُ له لا تخف أنا صحفيّ عربيّ ولا علاقة لي بالأمريكيين ولا بالشّرطة الأفغانيّة، فاطمأنّ الولد وأخبرني عن بعض أحوال أسرته ومنها أنّ أخاه الأكبر معتقل منذ أيام لدى أمن الولاية، وأنّ أباه سافر إلى باكستان ليرتّب أمر انتقال الأسرة هناك.

غادرنا أسعد آباد وتوقّفنا بعض الوقت أمام القاعدة الأمريكية حيث طلبتُ مقابلة مسؤول العلاقات العامّة، فلمّا حضر أخبرته أنّني مراسل لقناة الجزيرة، وأرغب في مرافقة دوريات القوّات الأمريكية أثناء العمليات التّي تنفّذها في ولاية كونار، فاعتذر وقال إنّ ذلك يحتاج إلى إذن من القيادة العامّة في قاعدة (بجرام).

قبل منتصف النّهار خرجنا من أسعد آباد باتّجاه العاصمة كابل في نفس الطّريق المحاذي لنهر كونار الطّويل الذّي ينبع من جبال نورستان ويواصل مسيرته حتّى جلال آباد، وهناك يلتقي بنهر كابل ليتحوّلا إلى نهر واحد يتّجه صوب باكستان، حيث يعدّ أحد مصادر المياه الرّئيسية لها.

حدّثني عتيق الله عن النّهر وإشكالية عدم استغلاله وبناء السّدود عليه، مع أنّ عددا من السّهول القاحلة ليست بعيدة عنه، ولا يتعدّى استغلال الأفغان له الطّرق البدائيّة التّي تكتفي بجداول أو سواقي لريّ مساحات زراعيّة محدودة.

تساءلتُ عن المانع من استغلال هذا النّهر العظيم، فقال عتيق إنّ باكستان لا توافق على بناء أيّ سدّ على طول مجرى النّهر، وأردف قائلا إنّ الرّئيس الأفغاني داوود خان دفع حياته عام 1978 ثمنا لسعيه وراء إقامة سدّ عظيم على نهر كونار.

قلتُ لعتيق كيف يستقيم ذلك والجميع يعرف أنّ قاتل داوود ومنفّذ الانقلاب هو الحزب الشّيوعيّ الأفغانيّ الذّي كان شديد الارتباط بموسكو يومها، فقال إنّ الجناح البشتونيّ "خلق" في الحزب الشّيوعيّ كان على علاقة بباكستان زيادة على علاقته الوثيقة بالاتّحاد السّوفيتي، فأوعزت باكستان إلى عملائها داخل هذا الجناح بالإسراع في تنفيذ الانقلاب الذّي كان الحزب الشّيوعيّ يخطّط له منذ مدّة للاستيلاء على السّلطة، وبذلك تمّ القضاء على داوود وطموحاته "المائيّة"، وحقّقت باكستان نصرا في حرب المياه التّي تخوضها على جبهتي الهند وأفغانستان.

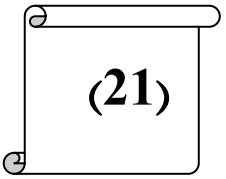

(21) الجنرال الذّي تنكّر لأصله

كان لمكتب قناة الجزيرة في العاصمة الأفغانيّة كابل علاقة تعاون مع المترجم الأساسيّ للماريشال محمّد فهيم وزير الدّفاع الأفغانيّ في حكومة الرّئيس حامد كارزي. وقد كان هذا المترجم في البداية يعمل مع الجزيرة قبل أن "يكتشفه" فهيم أثناء لقاء صحفيّ أجراه معه الزّميل وضّاح خنفر في كابل ربيع عام 2002، ومن ثمّ دعاه للعمل في وزارة الدّفاع.

المترجم واسمه سعيد كان يتقن العربيّة إلى جانب الإنجليزية إضافة إلى لغته الأمّ الفارسيّة والبشتو اللّغة الرّسمية الأولى للبلاد، ولأنّه عاش لعدّة سنوات في باكستان فقد أتقن اللّغة الأردية وقسطا من البنجابيّة. وظاهرة إتقان عدّة لغات مسألة عاديّة جدّا في عدد من الدّول الآسيوية؛ لتعدّد الشّعوب وتجاورها وتداخلها.

كان سعيد يطلعنا على البرامج والنّشاطات المهمّة للماريشال فهيم ووزارة الدّفاع لنقوم بتغطيتها، ويساعدنا في إجراءات الدّخول والحصول على التّصاريح اللاّزمة لذلك.

وفي أحد أيّام صيف 2003 حضر إلى كابل الجنرال (جون أبي زيد) قائد القيادة الوسطى في الجيش الأمريكيّ، وكانت له لقاءات مع المسؤولين الأفغان بعد أن زار جنوده في قاعدة (بجرام) شمال كابل واطمأنّ عليهم.

كان الجنرال (أبي زيد) في ذلك الوقت حديث العهد بمنصبه الجديد الذّي تولاّه خلفا للجنرال تومي فرانكس الذّي أُحيل على التّقاعد، وكان فرانكس يزور أفغانستان باستمرار ويلتقي القيادات الأفغانيّة وأبرزها محمّد فهيم وزير الدّفاع.

وقد وصفت وسائل الإعلام (أبي زيد)، عند تعيينه خلفا لفرانكس، بأنّه أوّل عربيّ يصل إلى تلك المرتبة حيث يشرف على مائتين وخمسين ألف جنديّ أمريكيّ، يتبعون القيادة الوسطى الأمريكية التّي يقع مقرّها بفلوريدا، ويتوزّع هذا العدد الكبير من جنودها في دول المشرق العربيّ وجنوب غرب آسيا.

أخبرني سعيد عبر الهاتف بموعد حضور الجنرال الأمريكيّ للقاء الوزير فهيم بمقرّ رئاسة الوزراء الذّي كان شاغرا لعدم توافر النّظام السّياسيّ الأفغانيّ الجديد على منصب رئيس الوزراء، فاتّخذ منه فهيم مقرا له إلى جانب مكتبه في وزارة الدّفاع الأفغانية، فإلى ذلك الحين كان فهيم الرّجل الأقوى في حكومة كارزي.

حضرتُ مع المصوّر لأجد توصيّة من سعيد عند البوّابة الرّئيسية، ولم أفاجأ لعدم حضور زملائنا الصحفيين من المراسلين ووكالات الأنباء المعروفة، فقد أخبرني سعيد أنّ الحضور مقتصر على تلفزيون كابل وقناة الجزيرة فقط.

سبق لسعيد أن حدّثني عن زيارة جون أبي زيد المتوقعة لكابل ولفتت كلمة (أبي زيد) انتباهه، فقلتُ له إنّ الرّجل لبنانيّ الأصل، فأخبر الماريشال فهيم بذلك وكان لا يتحدّث الإنجليزية البتّة لكنّه يستطيع التّحاور إلى حدّ ما باللّغة العربيّة، فقد تخرّج قبل الغزو السّوفيتي لأفغانستان من دار العلوم العربيّة بكابل، وهي كلّية تدرّس العلوم الإسلاميّة بشكل متطوّر مقارنة بالمدارس الدّينية التّقليدية، وفي سنوات الجهاد ضدّ القوّات السّوفيتية

عاش فهيم مع المتطوّعين العرب الذّين وفدوا على جبهات ومناطق أحمد شاه مسعود بشمال أفغانستان.

وصل الجنرال جون أبي زيد بموكبه المدجّج بالسّلاح، كعادة الشّخصيات الأمريكية عندما تتحرّك في شوارع كابل، وكان فهيم وحاشيته في استقباله عند مدخل البناية. صافح فهيم ضيفه وأمطره بوابل من الجمل العربيّة من أمثال: كيف حالك يا أخي، وصلت بخير، أهلا وسهلا بكم في أفغانستان... كان (أبي زيد) يعرف أنّ أكثر من كاميرا تلفزيونيّة تصوّره في تلك اللّحظات، لكنّه لم يجد مفرّا من التّجاوب مع فهيم فبدأ يجيبه باللّغة العربيّة، وعندما جلس الاثنان في غرفة الاستقبال سأل (أبي زيد) فهيم: أين تعلمت العربية..؟ فقال: في دار العلوم العربيّة بكابل، وتدخّل المترجم بعد ذلك ليبدأ الجنرال الأمريكيّ حديثا بالإنجليزية في حين كنّا نغادر المكان لتبدأ الجلسة المغلقة.

وقفنا خارج قاعة الاجتماع مع حرس الماريشال محمد فهيم وجنود أمريكيّين في انتظار انتهاء الجلسة المغلقة، وحين رأيت أحد موظّفي وزارة الدّفاع الأفغانيّة يحمل هديّة تذكاريّة عرفت أنّ موعد الجلسة قد شارف على الانتهاء، وأنّ وقت مراسم الوداع وتبادل الهدايا التّذكارية قد حان، فقرّرت بيني وبين نفسي أن أحرج الجنرال أبي زيد وأحدّثه باللّغة العربيّة أمام الملأ، وهكذا دخلنا والميكروفون في يدي والمصوّر على أتمّ الاستعداد.

تبادل الماريشال فهيم الهدايا مع أبي زيد وأرادا الخروج فوقفتُ في طريقهما وقرّبت الميكروفون من الجنرال أبي زيد قائلا بالعربيّة: تصريح لقناة الجزيرة حول اللّقاء، فردّ محتدا باللّغة الإنجليزية: لا حديث بالعربيّة، فقلتُ إذن بالإنجليزية فقال لا، فقلت ضاحكا إذن بالفارسيّة، وتركته لأستدير جهة الماريشال فهيم الذّي كان يراقب الموقف... فتحدّث فهيم بإسهاب عن الزّيارة وشكر الولايات المتّحدة الأمريكيّة على مساعدتها لأفغانستان، وبعد

أن أكمل حديثه أدرتُ الميكروفون إلى أبي زيد وقلت له بالإنجليزية: تعليقك حول ما جرى خلال اللّقاء، فاضطرّ للحديث (بالإنجليزية طبعا) وكان حديثه مختصرا مقتضبا.

انكسر الحاجز بعد ذلك فبدأتُ حديثا جانبيا مع الجنرال أبي زيد حيث سألته بداية عن أصله وإن كان فعلا ينحدر من أصول لبنانيّة، فأنكر ذلك وقال إنّه تعلّم اللّغة العربيّة في الجيش الأمريكي، وهو خلاف ما هو معروف من أنّه لبنانيّ هاجر مع أسرته صبيا إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

كان البروتوكول يقتضي أن ينزل فهيم بجانب ضيفه الأمريكي إلى الطّابق الأرضيّ ومن ثمّ يودّعه، ولأنّ عدد الجنود الأمريكيين والأفغان كان كبيرا نسبيا، والمكان ضيّق فقد اختلط الأمر حيث واصلتُ الحديث مع أبي زيد ونحن ننزل الدَّرج بينما كان الماريشال فهيم يمشي أمامنا.

ونحن نقترب من البوّابة الخارجيّة وقبل أن أودّعه قال لي (أبي زيد) أخبر زملاءك في الدّوحة أن تغطية الجزيرة لأحداث العراق ليست متوازنة، وبالطّبع لم يكن هناك وقت ولا مجال لأناقشه وأردّ عليه، أو أسأله على الأقلّ عن التغطيات الصحفيّة المتوازنة في تصوّره وتصوّر القيادة الأمريكية، فهل هي تلك التغطيات التّي تحرص على أن تصبغ على القوّات الأمريكية صفة المخلّص، وعلى السّياسيين الأمريكيين، وخططهم المعلنة والخفيّة، صفات المصلحين في الأرض، ورسل الدّيمقراطية وحقوق الإنسان للعالم الثالث وعالمنا العربي على وجه الخصوص..؟.

لا أدري إن كان حرّاس (أبي زيد) الأمريكيّين الغلاظ (أو هذا ما عرفناه عنهم على الأقلّ) قد تركوني أمشي إلى جانب قائدهم احتراما له لأنّه كان يبادلني الحديث..؟ أم أنّ شدّة الزّحام لم تترك لهم مجالا للتّصرف

وسحبي بعنف كما هو معروف عن أفراد الحراسات الشّخصية في مثل هذه الحالات.

على كلّ حال بعد أن غادر موكب (أبي زيد) أدركتُ مدى حجم المغامرة التّي أقدمت عليها، وحمدت الله أنّني لم أتعرّض للضّرب أو الإهانة لمخالفتي أصول البروتوكول والسّير إلى جانب مسؤول عسكريّ أمريكيّ كبير دون إذن أو ترتيب مسبق.

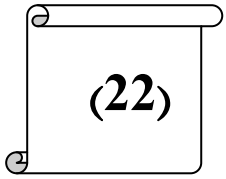

(22) سبْق صحفيّ بجثث المساكين

ولاية زابل المجاورة لولاية قندهار شكّلت قلقا دائما لحكومة الرّئيس حامد كارزي على غرار عدد من الولايات الأخرى التّي كانت معاقل مهمّة لحركة طالبان، وصارت بعد رحيل الحركة عن سدّة الحكم مراكز انطلاق لحرب عصابات تشنّها طالبان على القوّات الأمريكيّة والأفغانيّة.

تمتاز ولاية زابل بغلبة الطّابع السّهليّ على أراضيها مما ساعد أهلها، كما هو الحال في قندهار، على القتال بواسطة الدّراجات النّارية، حيث ينطلق بها المقاتل مع رديف يحمل رشاشا أو قاذف صواريخ خفيف، ليباغت الخصم ويعود بسرعة من حيث أتى.

في أواخر صيف 2003 نشب قتال عنيف بين عناصر طالبان ومئات الجنود الحكوميّين المدعومين بقوّات بريّة وتغطية جويّة أمريكيّة، وكان مسرح القتال منطقة "دَايْ ثْشُوبَان" بولاية زابل، وهي عبارة عن جبال وعرة تتصل بجبال ولاية أُورُوزْغَان المجاورة.

كان علينا أن نتحرّك نحو المنطقة بأسرع ما يمكن، فخرجنا من كابل ولم يبق على غروب الشّمس سوى ساعة من الزّمن، لنسلك طريق كابل – قندهار "سيّئ السّمعة" وإن كانت أشغال إعادة التّأهيل قد انطلقت فيه من جهة العاصمة كابل.

وصلنا مدينة غزني بعد صلاة العشاء بأكثر من ساعتين وبحثنا عن فندق نقضي فيه اللّيل لننطلق صباحا نحو منطقة "داي تشوبان" أو أقرب المناطق الممكنة منها؛ فالوصول إلى خطوط القتال الأولى لم يكن سهل المنال. خرجنا مبكّرين لنسير في طريق صعبة ومخيفة حتّى دخلنا حدود ولاية زابل مع أشعّة الشّمس الأولى، وبعد ساعة أخرى من السّير توقّفنا في قرية كبيرة تدعى "شَاهْجوي" لنسأل عن الطّريق المؤدّية إلى منطقة المعارك.

توجهّنا إلى المركز الأمنيّ لمنطقة "شاهجوي" لنجده مجرّد بناية نصف مدمّرة، وفي إحدى الغرف جلس شخص معمّم ذو لحية كثّة وسط مجموعة من المسلّحين فأدركنا أنّه مسؤول أمن المنطقة.

قدّم لنا المسؤول الشّاي على الطّريقة الأفغانيّة ولم يبخل علينا بكمّ هائل من عبارات التّرحيب، فسألناه عن المعارك الدّائرة في "داي تشوبان" وعن أيّ معلومات جديدة حولها، ثمّ حاورناه حول مشاكل منطقته وصوّرنا المركز ومرافقه البسيطة وجالت كاميرتنا في غرفة السّجن حيث كان بها عدد من السجناء في أرجل بعضهم قيود حديدية.

لم تكن نظرات عناصر الأمن ولا قائدهم مريحة بالنّسبة لنا رغم "كرم الضّيافة" الذّي قابلونا به، ومع ذلك سألناهم عن الطّريق المؤديّة إلى منطقة المعارك فوصفوها لسائق سيّارتنا بالتّفصيل.

شكرنا مسؤول الأمن ومجموعته وودّعناهم وانطلقنا خارج القرية حيث توقّفنا للتّشاور ودراسة الموقف من كلّ جوانبه، فقد حذّرنا مسؤول الأمن من خطورة الطّريق وصعوبة التّضاريس.

كان الرّأي الغالب بيننا أن نتريّث ولا نسافر عبر هذا الطّريق المجهول، وزاد من توجّسنا سيّارة المركز الأمني التّي لحقت بنا ووقفت غير بعيد عنّا تراقب تحرّكاتنا، فقرّرنا العودة إلى القرية فورا، وهناك صوّرنا

السّوق والطّريق والغبار المنبعث بشكل مستمرّ من الشّاحنات والسّيارات الكثيرة التّي تستعمل طريق كابل قندهار، وفي أطراف القرية دخلنا مدرسة قال مديرها إنّ عناصر مسلّحة أحرقتها قبل عدة أيام، ومن أمام هذه المدرسة تحدّثت عبر الهاتف خلال إحدى نشرات الأخبار، وقدّمت ما توفّر لديّ من معلومات عن المعارك الجاريّة إضافة إلى الحديث عن بعض ملابسات المنطقة وتناقضاتها وسكّانها.

بعد الظّهر كنّا في طريقنا من جديد نحو ولاية غزني بعد أن قرّرنا العودة إلى كابل، ولأنّ الطّاقم هو نفسه الذّي كان معي في قندهار مطلع تلك السّنة، فقد حاولنا نسيان صعوبة الطّريق بأحاديث عن قندهار والطُّرف التّي صادفتنا هناك، وتذكّرنا ليلة قضيناها بقرية (نَوْرَة) التّي تقع على طريقنا نحو كابل حيث كنّا قد وصلناها بعد العاشرة ليلا ودخلنا (هوتل) بدا لنا أنّه الأفضل، وطلبنا طعاما فلم نجد غير الأرز، وسألنا بعد ذلك عن مكان المبيت، فقادنا أحد الصّبيان إلى عدد من الغرف خلف المطعم تفتح أبوابها على رواق ضيّق شبه مظلم، وهناك أدخلنا إحدى الغرف.

كان سقف الغرفة من الخشب وأرضيتها من الطين دون أن يغطّيها فراش أو حصير، وفي إحدى الزّوايا تقبع المدفأة التّي تشتغل بالحطب ويسمّيها الأفغان (بخاري). كان الحطب الذّي خصّصوه لنا قليلا فاضطررنا لدفع مبلغ بسيط للصّبي الذّي يقوم على الخدمة ليحضر لنا حطبا إضافيا فاللّيلة كانت شديدة البرودة. سألتُ السّائق عن أجرة المبيت فقال إنّ الغرفة مجّانية وندفع فقط ثمن الأغطية والأفرشة التّي يحضرونها حسب العدد، إضافة إلى ثمن الأكل الذّي تناولناه في المطعم.

"الفندق" بدون دورات مياه بطبيعة الحال لكنّه يمتلك مساحة خلفية يسهل الخروج إليها وبها بعض المنخفضات التّي يمكن الاختباء فيها بعد الحصول على إبريق ماء من "قسم خدمات الغرف" بالفندق.

واصلنا السّير وحديث ذكريات قندهار إلى أن حلّ الظّلام وأدركنا مدينة غزني حيث قضينا ليلتنا وانطلقنا في الصّباح الباكر إلى كابل.

تواصلت المعارك في "داي تشوبان" ووجدنا أنفسنا مضطرّين مرّة أخرى للعودة إلى المنطقة ومحاولة الوصول إليها رغم المخاطر التّي صرنا ندركها جيدا.

انطلقنا من جديد بعد عدّة أيّام من رحلتنا الأولى وبتنا ليلتنا في نفس المكان بمدينة غزني، ثمّ انطلقنا مبكّرين جدّا لنحاول الوصول إلى المنطقة من طريق آخر غير الذّي حاولنا أن نسلكه في المرّة الأولى.

قطعنا مسافة طويلة في ولاية زَابُل وقبل أن تطلع الشّمس بقليل مررنا بتجمّع أشبه ما يكون بقرية صغيرة وهناك لاحظنا قرب الطّريق حركة غير عاديّة، فتحرّك فينا الفضول الصّحفيّ ووقفنا نستطلع الأمر فوجدنا آثار عمليّة لمقاتلي طالبان ما زالت طازجة، حيث تمّ الهجوم قبل ساعات فقط، وقتل المهاجمون عددا من عناصر الأمن الأفغان ما زالت جثثهم في مكانها، وأحرقوا سيّارتين وأعطبوا ثالثة.

كان الحرّاس المساكين، كما ذكر لنا الأحياء منهم، من ولاية "لَغْمَان" بشرقيّ أفغانستان يقومون بحراسة شركة تركيّة تشارك في إعادة إعمار طريق كابل قندهار الذّي ترفض طالبان إعادة تعبيده لأنّه سيخدم المصالح الأمريكيّة أكثر من خدمته لأهالي المنطقة حسب رأيها.

صوّرنا جثث الحرّاس القتلى ومظاهر وآثار العمليّة، وحاورنا بعض الحرّاس الذّين بادر أحدهم بسؤالنا عن هويتنا، وقبل أن نجيب قال هل أنتم من تلفزيون كابل..؟ فسكتنا، ففهم أنّنا كذلك.

ابتعدنا عن المكان وأخفينا الشّريط جيدا ثمّ اتصلتُ بقسم المراسلين وأخبرتهم أنّ الصّور التّي حصلنا عليها خاصّة ومميّزة، والأفضل أن نعود بها إلى كابل خاصّة أنّ الوصول إلى مكان المعارك في "داي تشوبان" غير مضمون.

انطلقنا بسرعة نحو كابل لنصلها بعد سبع ساعات وأدركنا نشرة "الجزيرة منتصف اليوم" وبُثّت صور المعركة وعليها علامة "خاصّ بالجزيرة"، وكان سبقا صحفيّا بالنّسبة لنا فقد كان من النّادر جدّا الحصول على صور لآثار المعارك التّي تقوم بها حركة طالبان في المناطق النّائية.

ذهبتُ بعد ذلك لأخلد للراحة بعد رحلة خطيرة ومتعبة، لكنّ صور القتلى لم تفارق خيالي، وتحتها سؤال مقلق ومؤرّق عن مدى "شرعيّة وأخلاقيّة" هذا الفرح الذّي يبدو علينا ونحن نحقّق سبقا صحفيّا بمآسي وآلام وجراحات الآخرين.

(23) ضريبة السّبق الصّحفيّ

كانت الشّهور التّالية لبدء نشاط المكتب الجديد لقناة الجزيرة في أفغانستان ساخنة إلى حدّ كبير؛ فكابل ظلّت تستقبل لفترة من الزّمن صواريخ تنطلق من مناطق مجاورة مثل (تْشَارْ آسْيَاب) و(بَجْرَامِي) وهي معاقل سابقة لمقاتلي الحزب الإسلاميّ المعارض.

كما ظلّت كابل تشهد من حين لآخر انفجار ألغام أرضيّة وقنابل تستهدف في الغالب دوريات القوّات الأجنبية وعناصر الشّرطة الأفغانيّة، وكانت حركة طالبان تتبنّى الكثير من هذه الحوادث، وما لا تتبنّاه ينسبه إليها المتحدّثون باسم الحكومة الأفغانية والنّاطقون باسم القوات الدوليّة والأمريكية، وذلك "لحاجة في نفس يعقوب".

ولأنّنا في مكتب الجزيرة نمتلك إمكانيات جيّدة فقد كنّا نحقّق في أغلب الأحيان سبقا على مراسلي وكالات الأنباء العالميّة ومراسلي القنوات التلفزيونية المنافسة، وكان لموقع مكتبنا دور في ذلك، حيث كنّا نقيم في حي (وزير أكبر خان) الرّاقي، بمقاييس كابل بطبيعة الحال، وكان مكتبنا يبعد عشرات الأمتار فقط عن السّور الخلفيّ لمبنى السّفارة الأمريكية، وهي أشبه بقلعة حصينة كما هو حال السّفارات الأمريكية في مناطق الحروب والنّزاعات، وفي البلدان التّي ترتفع فيها درجة العداء الشّعبيّ لسياسات الإدارة الأمريكية.

وطبيعيّ أن تستهدف "الصّواريخ الوافدة على كابل" جميع المناطق القريبة من السّفارة الأمريكية حيث يقع عدد من المواقع والإدارات الأجنبيّة والأفغانيّة المهمّة منها مقرّ قيادة القوّات الدوليّة المتعدّدة الجنسيّات (إيساف) ومركز قيادة أحد فيالق الجيش الأفغانيّ، وعدد من سفارات الدّول الأوروبية، فضلا عن بيوت شخصيّات حكومية أفغانيّة مرموقة.

وكان من بين الصواريخ التّي أطلقت على المنطقة، بعد افتتاحنا للمكتب بأيّام قليلة، صاروخ سقط أمام مبنى السّفارة الأمريكية، فلم يكن يفصله عن مكتبنا سوى مئات الأمتار، وقد كان معنا في تلك الأيام مهندس سودانيّ جاء لتركيب الأجهزة والمعدّات التّي أحضرناها معنا، فخاف الرّجل خوفا شديدا بعد سقوط الصّاروخ، وكان لا يصلّى فبدأ يواظب على أداء الصّلوات.

كان الزّملاء الأفغان قد شرحوا للمهندس السّودانيّ أنّ إطلاق الصّواريخ يتمّ بعملية بدائية بسيطة، وأنّ مطلق الصّاروخ يضعه فوق صخرة أو مرتفع ويثبّته ثمّ يبتعد ويضغط على الزّر الكهربائيّ لينطلق الصّاروخ نحو كابل، فكان المهندس بعد ذلك يقول مازحا ماذا لو عطس مطلق الصّاروخ في المرّة القادمة أثناء توجيه الصاروخ..؟ لا شكّ أنّه سيتجاوز السّفارة الأمريكية ويصل إلى مكتب الجزيرة.

كان فريق العمل في مكتب الجزيرة على أتمّ الاستعداد دائما لحالات الطّوارئ والمفاجآت، فإذا سمعنا صوت انفجار من هنا أو هناك أو اتصل بنا من يخبرنا عن حدث ما؛ تنطلق السّيارة بأقصى سرعة ممكنة في اتجاه مكان الانفجار، فإذا وصلنا أسارع أنا بجمع معلومات أوّلية أبلّغها لغرفة الأخبار في الدّوحة عبر الهاتف لتظهر على شكل خبر عاجل إذا كان الحدث كبيرا، ويقوم المصوّر بالتقاط مجموعة من المشاهد لا تزيد عن

خمس دقائق، ويرسل الشّريط مع السّائق إلى المكتب حيث يكون المهندس المسؤول عن جهاز الإرسال مستعدّا من النّاحية الفنيّة لإرسال الصّور، فيتمّ استقبال المادّة المصوّرة الأولى في الدّوحة دون أيّ تركيب أو حذف منا، وهكذا تظهر الصّور في نشرة الأخبار التّالية، وتسبق الجزيرة جميع المؤسّسات الإعلاميّة المنافسة.

تكرّر أمر السّبق في تغطية الانفجارات والصّواريخ معنا مرات عديدة حتى صار الصحفيّون الأفغان الذّين يعملون مع الوكالات الأجنبية يقولون مازحين لأفراد طاقمنا من الأفغان بأنّكم تعلمون بالأحداث قبل وقوعها، ولهذا تصلون إلى المكان قبلنا وتسبقون الجميع في نقل الخبر وبثّه.

وقد بالغ بعض هؤلاء الزّملاء في "إحراج" أفراد طاقمنا خلال المؤتمرات الصحفيّة الدّورية في كابل حتّى اشتكى لي المصوّر مرّة من هذا الأمر، فهوّنت من شأن الموضوع وقلت له إنّ هذا الأمر طبيعيّ في ظروفنا هذه، وما تعانيه أنت وزملاؤك هو ضريبة النّجاح الذّي نحقّقه في الوصول إلى موقع الحدث قبل الجميع.

وفي الأيام الأخيرة من عام ألفين وثلاثة، عندما كانت كابل تحتضن اجتماعات مجلس اللوياجرغا الأفغانيّ، قمنا بنقل معدّاتنا وأبرزها جهاز الإرسال مع مولّد كهربائي إلى ساحة فندق الأنتركونتيننتل حيث تعقد بالقرب منه اجتماعات اللُّويَاجِرْغَا (المجلس الكبير) بحضور خمسمائة شخصيّة من مندوبي الولايات والوجهاء وقادة الحرب الأفغان.

كانت الأيام الأولى للوياجرغا مشحونة بالأحداث فكنّا في حاجة إلى جهاز الإرسال قرب مكان الاجتماعات لإرسال أكثر من تقرير في اليوم وإجراء مقابلات حيّة على الهواء أثناء نشرات الأخبار، لكنّ جلسات اللوياجرغا صارت روتينية بعد ذلك، ففكّرنا في العودة بأجهزتنا ومعداتنا إلى

مكتبنا في حي (وزير أكبر خان)، حيث نتابع الأخبار والجلسات قرب مكان الاجتماعات ونرسل التّقارير والصّور من المكتب.

كانت السّاعة قد تجاوزت الحادية عشر ليلا عندما جمعنا الأجهزة والمعدّات وقرّرنا العودة إلى المكتب، فلمّا رأى جنود القوّات الدّولية، الذّين كانوا يحرسون الفندق، ما قمنا به توجّسوا خوفا وسألونا إن كان هناك خبر قد وصلنا عن صواريخ قد تُطلق هذه اللّيلة على الفندق أو على مكان اللّوياجرغا فضحكنا من سؤالهم وانصرفنا بمعدّاتنا إلى مكتبنا.

وقبل أن أنام فكرتُ في الأمر من جديد فانتابني بعض القلق، فماذا لو حدث انفجار أو أُطلق صاروخ على المنطقة..؟ سيقول الجميع دون أيّ حاجة إلى أبسط دليل: فريق الجزيرة كان يعلم بما سيحدث ولذلك انسحب ليلا. والحمد لله مرّت اللّيلة وبقيّة ليالي وأيام اللّوياجرغا بأمن وسلام.

وقصّة السّبق الصّحفي الذّي بدأت تحقّقه عدد من القنوات العربيّة صار يقلق "بارونات" الإعلام العالمي، فهؤلاء تعوّدوا منذ عشرات السّنين على التربّع فوق عرش الإعلام والسّيطرة على مصادر الخبر، وامتلكوا الحقّ وحدهم في أن يعطوا من الأخبار ما يريدون ويحجبوا منها ما لا يتماشى مع مصالح القوى التّي تقف وراءهم أو تؤثر على قراراتهم.

والوكالات الكبرى مثل الأسوشييتد برس ورويترز كانت مصدرا شبه وحيد للقصص الإخبارية المصوّرة من كلّ مناطق العالم، لكنّ هذا الاحتكار انكسر، خاصة في العالم العربيّ، عندما ظهرت قنوات فضائيّة عربيّة، وصار لها مراسلون في كلّ مكان يقفون في نفس الميادين وعلى قدم المساواة مع مراسلي الوكالات العالمية، بل يسبقونهم بمسافات متقدّمة في كثير من الأحيان.

وقد أخبرني المصوّر مرّة، بعد تغطيتنا لمظاهرة في كابل، أنّ مصورا فوتوغرافيا أجنبيا كان معنا في نفس التّغطية صاح متبرّما: أريد أن ألتقط صورة ليس فيها "لوغو الجزيرة" فقد كان شعار الجزيرة حاضرا في كلّ الأحداث والمؤتمرات المهمّة في كابل، وكنّا إذا تزامن حدثان نرسل مصوّرا هنا ومصوّرا هناك، ونثبت حضورنا حتّى لو أدركنا مسبقا أنّ الحجم الكبير للأحداث العالمية لن يسمح في ذلك اليوم ببثّ شيء عن أفغانستان.

وكان الهدف من وراء ذلك أن نسجّل حضورا لمحطّتنا، ونكسب ودّ الجهة صاحبة البرنامج، خاصّة إذا كان حفل تخرّج أو مؤتمرا صحفيّا لوزارة أو مؤسّسة أفغانية تحاول تسويق نفسها عبر وسائل الإعلام، إضافة إلى إثراء أرشيفنا في مكتب كابل بصور جديدة نحتاج إليها لاحقا في إعداد برامج أخرى.

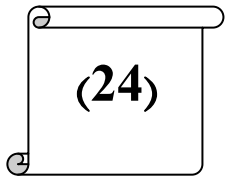

(24) الإبراهيميّ الذّي أحبّه الأفغان

السّيد الأخضر الإبراهيميّ شخصيّة جزائريّة طارت شهرتها في الآفاق خاصّة بعد نجاحه في جمع شمل اللّبنانيين خلال مؤتمر الطّائف عام تسعة وثمانين من القرن الماضي.

أوّل مؤتمر صحفيّ حضرته للإبراهيميّ كان في إسلام آباد عام 2001 عندما عاد من جديد ليستلم الملفّ الأفغانيّ المعقّد والشّبيه في تركيبته العرقية والطائفية والمذهبية بالملفّ اللّبنانيّ، وكان الرّجل قبل ذلك مبعوثا أمميا لأفغانستان بين عامي 1997 و 1999.

كان الإبراهيميّ في مؤتمره الصّحفي بفندق الماريوت بإسلام آباد متألقا والمكان يعجّ بعدد كبير من الصّحفيين الأجانب والباكستانيين، وظهر الإبراهيمي خلال أجوبته شديد الحذر والذّكاء، وكان يتلقّى الأسئلة ويجيب عليها بثلاث لغات هي العربيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة.

وبعد وصولي إلى أفغانستان حضرتُ مؤتمرا صحفيّا للإبراهيميّ في أحد مقرّات الأمم المتّحدة الكثيرة في كابل، وسافر الرّجل بعدها إلى المقرّ الرّئيسيّ للأمم المتّحدة بنيويورك ليعود بعد فترة حيث قابلته في عدّة مناسبات وتعرّفت عليه أكثر.

قال لي شابّ أفغانيّ مقرّب من شخصيّات حكوميّة إنّ الأخضر الإبراهيميّ بارع جدّا في حديثه مع الآخرين، وهو إذا أعطى موعدا لشخصيّة أفغانيّة سيقابلها للمرّة الأولى؛ يجمع حولها أكبر قدر من

المعلومات، حتّى إذا تمّت المقابلة كان قادرا على الحديث بدقّة وبراعة، ومدركا لخلفيات الجالس وماضيه ونمط وآفاق وحدود تفكيره.

كنتُ ألتقي الإبراهيميّ في المناسبات العامّة والمؤتمرات الصّحفية واحتراما لسنّه أخاطبه بـ (عميّ لخضر) عندما أسلّم عليه بدلا من الأستاذ الإبراهيميّ. وفي أحد الأعياد التّي قضيتها في كابل اتّصلت بالمتحدّث باسم مكتب الأمم المتحدة (مانويل دي سيلفا) وقلتُ له إنّني أرغب في زيارة عمّي لخضر للمعايدة، فحدّد لي موعدا لذلك وكان في اليوم الثّاني للعيد.

دخلتُ إلى مقرّ إقامة الإبراهيميّ، وكانت في حيّ (وزير أكبر خان) حيث يقع مكتب الجزيرة أيضا، وانتظرتُ قليلا ليحضر عمّي لخضر بعد أن ودّع ضيفا أفغانيا، وبعد تهاني ومجاملات العيد المعروفة جلسنا نتحدّث ونتناول قهوة وحلويات شاميّة قال الإبراهيميّ إنّه أحضرها معه من مدينة دبي حيث كان هناك قبل عدة أيام.

انضمّ إلينا (مانويل) بعد أن قال لي بعربيّة متكلّفة عيد مبارك، ولستُ أدري إن كان في عرف الأمم المتّحدة أن يحضر السّكرتير أو المتحدّث الإعلاميّ كلّ جلسات المسؤولين الكبار، أم أنّ السّيد الإبراهيمي هو الذّي دعاه، فمع أنّ الجلسة خاصّة وبعيدة عن أيّ طابع سياسيّ أو إخباريّ؛ فالجالس معه في النّهاية مراسل لقناة (مشاغبة) وجريئة مثل الجزيرة، والأحوط ربّما أن يحضر المتحدّث الصّحفيّ، حتّى لا يقال يوما إنّ الإبراهيميّ كان يسرّب أخبارا خاصّة للجزيرة.

طلب منّي الإبراهيميّ أن أتحدّث بالإنجليزية عندما حضر السّكرتير، وكنّا حينها نتحدّث عن الطّبيعة الجميلة في منطقة وادي سوف والصّحراء الجزائرية عموما، فلمّا تجاهلتُ الأمر وواصلتُ الحديث بالعربيّة،

اضطرّ عمّي لخضر أن يقول بالإنجليزية لمانويل: إنّه يتحدّث عن منطقته الجميلة في الجزائر.

خلال هذه الزّيارة لاحظتُ أنّ الإبراهيمي يتصرّف بشكل عاديّ مع الخدم والحرّاس، ويتعامل معهم بتواضع كبير، وربّما كان هذا الأمر من بين عدد من العوامل الأخرى التّي جعلت الأفغان يُكنّون للرّجل قدرا طيّبا من مشاعر الودّ والتّقدير، ويعاملونه بشكل مختلف عن غيره من الشّخصيات الدّولية التّي تعمل في أفغانستان.

كانت العلاقة بيني وبين المتحدّث باسم مكتب الأمم المتّحدة في كابل (مانويل دي سيلفا) جيّدة، وكان فريقنا الصّحفيّ يحضر مؤتمراته الصّحفية التّي يعقدها بشكل دوريّ، ويتلو فيها قائمة طويلة من إنجازات مكاتب الأمم المتحدة والنّجاحات الفائقة التّي يقول إنّها تحقّقها على مستوى جميع مناطق وولايات أفغانستان.

اتّصل بي (مانويل) مرّة عبر الهاتف وقال لي إنّ عمّك الأخضر يقترح إجراء مقابلة صحفيّة معه لينفي من خلالها خبرا أوردته صحيفة أجنبية معروفة مفاده أنّ الإبراهيميّ سيُعيّن مبعوثا للأمم المتّحدة في العراق، وكانت الإدارة الأمريكية في ذلك الوقت قد بدأت، على ما يبدو، تشعر بحجم وصعوبة الوحل الذّي صارت تتخبّط فيه مع تردّي الأوضاع الميدانيّة في العراق.

لبّيت الدعوة ووصلت مع فريقي في الموعد المحدّد للّقاء، وطرحت على عمي لخضر عدّة أسئلة، فأجاب عليها ونفى خلال حديثه ما أُشيع عن عزمه ترك أفغانستان والانتقال إلى العراق.

بثّت الجزيرة الخبر في نفس اليوم فقد كان خبرا مميّزا، فالأمر يتعلّق بالعراق الذّي كان (ولا زال) محطّ أنظار وسائل الإعلام في كلّ أنحاء الدّنيا، ويتعلّق أيضا بشخصيّة عالميّة لها وزنها وبصماتها في عدد من القضايا الدّولية.

لم يغب عن تفكيري قبل اللّقاء وبعده إمكانية أن يكون النّفي نوعا من كسب الوقت والمناورة السّياسيّة حتّى تتضح مسألة انتقال الإبراهيمي إلى العراق على نار هادئة، لا أن تتداولها الصّحافة العالميّة وتتحدّث عنها الأطراف السّياسية العراقية وربّما تفشلها بالكامل.

وحتّى عندما زادت الشّائعات عن أنّ الإبراهيمي قد ينتقل إلى العراق قريبا ظلّ الرّجل مصرّا على نفي هذا الأمر، وفي حديثه أمام مجلس اللّويا‌جرغا بعد الاتّفاق على مسودّة الدّستور الأفغاني مطلع عام 2004 ودّع الإبراهيمي الأفغان قائلا إنّه سيكون مستشارا للأمين العامّ للأمم المتّحدة في نيويورك نافيا بشكل ضمنيّ مسألة انتقاله إلى العراق، ولأنّه سبق وأن سمع أحاديث رسميّة أفغانية تتأسّف على عزمه مغادرة أفغانستان فقد قال مازحا يومها، وربما غامزا في نفس الوقت، إنّ عليه أن يطيع أوامر رئيسه في الأمم المتّحدة ويغادر أفغانستان وإلاّ أصبح من (لوردات الحرب) إذا تمرّد على الأوامر، وكان في الصّفوف الأولى حينها عدد من هؤلاء اللّوردات من أعضاء مجلس اللّويا‌جرغا وحكومة حامد كارزي.

ومرّت الأيّام وظهر الإبراهيميّ على السّاحة العراقيّة مبعوثا خاصّا للأمين العامّ للأمم المتّحدة، وربّما كان صادقا في نفيه قبل ذلك لكنّ الضّغوط الأمريكيّة كانت أقوى منه، فجورج بوش وطاقمه أدركوا فداحة تورّطهم في العراق، وربّما رأوا في الرّجل بصيص أمل، فهو الذّي عمل ونجح، في نظر البعض على الأقلّ، في تحقيق إنجازات كبيرة في لبنان وأفغانستان، وكلا البلدين مشابه للعراق في تعدّد الأعراق والطّوائف والمذاهب.

لكنّ الإبراهيميّ الذي خرج "بطلا" من لبنان وأفغانستان لم يكن مرحّبا به في العراق؛ فقد تكالب على مشروعه ومقترحاته عدد من الزّعماء السّياسيين العراقيّين الجدد ورموه بتهم خطيرة في نظرهم، ومن بينها التّعاطف مع البعثيّين، وكان على رأس من وقف ضدّه وضدّ أفكاره

ومشروعه أحمد الجلبي أحد أبرز الوجوه التّي دخلت مع القوات الأمريكية خلال عملية غزو العراق.

ومع أنّ الإبراهيمي حاول الصّمود أمام مناوئيه في العراق وقابل عددا كبيرا من الشّخصيات العراقية في فترة قياسيّة؛ فإنّه رضخ أخيرا للأمر الواقع وانسحب من المشهد العراقيّ، أو اضطرّت الأمم المتّحدة إلى استدعائه بعد تيقّنها من فشل مهمّته.

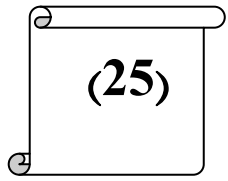

(25) قناة العالم الإيرانيّة

كانت أغلب تنقّلاتي من الدّوحة إلى كابل تتمّ عبر دولة الإمارات العربيّة المتّحدة فمنها تنطلق رحلات جويّة مباشرة إلى أفغانستان، لكنّني اخترتُ في إحدى المرّات أن يكون طريقي عبر العاصمة الإيرانية طهران، حيث تتوفّر رحلات للخطوط الجويّة الإيرانية بين طهران وكابل.

كنتُ أعرف صحفيّا مصريّا انتقل من قناة النّيل للأخبار المصريّة إلى العمل في قناة العالم الإخباريّة التّي تبثّ باللّغة العربيّة من طهران، فأخبرته بموعد وصولي، فاستقبلني الزّميل في مطار "مهر آباد" الدّولي ولم يكن بعيدا عن مقر إقامته بمنطقة "بونَك" غربيّ طهران.

كانت زيارتي لطهران في أواخر ربيع عام ألفين وأربعة، وتجوّلت خلالها في بعض معالم طهران وزرتُ قناة العالم والتقيتُ هناك بصحفيين عرب بينهم عدد من الجزائريين.

ومرّت الأيّام لتسوقني الأقدار في أحد أيّام أكتوبر من نفس العام وأضع قدمي للمرّة الثّانية في مطار "مهر آباد"، وبتأشيرة عمل هذه المرّة حصلت عليها من السّفارة الإيرانية في الجزائر بعد أن تعاقدتُ مع قناة العالم الإخباريّة.

كان هدفي من وراء هذه الخطوة هو اكتساب خبرة جديدة في دولة "مثيرة للجدل" سياسيّا ومذهبيّا، إلى جانب الرّغبة في تعلّم اللّغة الفارسيّة؛

هذه اللّغة الجميلة ذات التّراث الأدبيّ المميّز الذّي خلّفه أدباء وشعراء كبار أمثال سعدي شيرازي، وعمر الخيام، والخواجة حافظ شيرازي.

الصّورة التّي رسمتها لنفسي عن إيران وقناة العالم تحديدا لم أجدها كما تصوّرت، ومع أنّني لم أواجه متاعب أو مشاكل شخصيّة؛ فإنّ طبيعة وظروف العمل داخل غرفة الأخبار، والغموض الذّي يكتنف توجّه وأهداف القناة سبّب لي على الدّوام قلقا و"تأنيب ضمير".

وبعد فترة من العمل عرفتُ من الزّملاء الجزائريين قصّة البدايات الأولى للقناة ومعاناتهم من النّاحية المهنيّة، فقد بدأ التّحضير لانطلاق القناة، وفجأة ودون أيّ مقدّمات جاءت الأوامر ببدء البثّ الحيّ، فصعق الزّملاء، فهم يدركون جيدا معنى إطلاق قناة إخباريّة، وتوسّلوا للإدارة بشتّى الطّرق فلم ينفع معها شيء، ليكتشفوا بعد ذلك أنّ "القوم" قد تلقّوا معلومات مؤكّدة عن تاريخ بدء الغزو الأمريكيّ للعراق، وكان القائمون على القناة يريدون إيجاد موضع قدم لها في العراق، وهذا ما حصل فعلا في البداية فقد استطاعت القناة بوسائل معينة أن يكون بثّها أرضيّا في العراق بعد أن سقطت بغداد بيد الأمريكيين، ولأنّ الهوائيات كانت شبه معدومة في ذلك الوقت، فقد تابع برامج القناة جمهور عريض من العراقيين.

غرفة أخبار القناة كانت تضم مجموعة من الصحافيّين العرب قدموا من دول عربيّة مختلفة، إلى جانب عدد معتبر من العراقيّين الشّيعة الذّين كانوا يعيشون في إيران هربا من نظام البعث في بغداد، وكانوا يتقنون اللّغة الفارسيّة ولهم "علاقاتهم الخاصّة" مع إدارة القناة ومن يقف وراءها.

كان بين هؤلاء العراقيين عدد من الزّملاء "المحايدين" في الظّاهر على الأقلّ، فلم يكونوا يجاهرون بأيّ كلمات جارحة، بينما كان هناك عدد

آخر يظهر آراء متطرّفة حول بعض المواضيع الإخباريّة خاصة ما تعلّق منها بالعراق ومقاومة المحتلّ على وجه التّحديد.

ومع أنّ سياسة القناة، المعلنة على الأقلّ، هي عدم الرّضا عن الاحتلال الأمريكيّ للعراق؛ فإنّ بعض زملائنا العراقيّين كانوا يبدون تعاطفا مع الاحتلال ولا يتحرّجون في لعن المقاومة العراقية والنّيل منها وعدم بثّ أيّ خبر عنها مهما بدا "واضحا ونظيفا" في استهدافه لعناصر القوّات الأمريكيّة أو البريطانيّة.

وقد حدث مرّة أن كان أحد هؤلاء الزّملاء العراقيين رئيس تحرير النّشرة الرئيسيّة المسائيّة، وكان اليوم هو التّاسع من أفريل عام ألفين وخمسة موعد الذّكرى الثّانية لسقوط بغداد، فتظاهر الآلاف في مدن عالميّة تنديدا بالغزو الأمريكي للعراق، ووصلتنا الصّور عبر الوكالات، وكان الخبر عالميّا بامتياز، ولا تستطيع أيّ وسيلة إعلام تحترم نفسها أن تتجاهل ذلك.

كان زميلنا "متطرّفا" في سعادته بسقوط بغداد على يد الأمريكيين وكان يرى أنّ ما يحدث في العراق هو "ديمقراطية حقيقيّة"، ولأنّ خبر المظاهرات لابدّ أن يشكّل عنوانا رئيسيّا للنّشرة؛ فقد قام الزّميل العراقيّ بتكييفه حسب مشاعره ورغباته، فجاء العنوان: مظاهرات في الذّكرى الثّانية لسقوط بغداد، وديمقراطيّة ناشئة رغم العنف.

الرّواتب في إيران كانت متواضعة إلى حدّ ما، والأجانب الذّين تعاقدت القناة معهم هم الصّحفيون فقط، وكان الفنّيون والإداريون وغيرهم في القناة إيرانيون، وبشكل أو بآخر عرف هؤلاء قيمة الرّواتب التّي نتقاضاها ولم يخفوا سخطهم وامتعاضهم من الأمر.

ضايقني هذا الأمر كثيرا خاصّة أنّني سمعته أكثر من مرّة على لسان زملاء إيرانيين إضافة إلى زملاء عراقيّين مقيمين في إيران ويستلمون رواتب "إيرانيّة" وليست لهم عقود عمل خارجية مثلنا.

ومسألة الحساسيّة من الرّواتب لاحظتُها أيضا أثناء عملي في أفغانستان، وعاينتُها أيضا في باكستان لكن بشكل محدود جدّا. ولأنّ هذه المسألة كثيرا ما كانت تأخذ حيّزا من أحاديثنا نحن "أصحاب العقود الخارجيّة"، فقد كنتُ أحكي للزّملاء قصّة طريفة حدثت خلال مرحلة دراستي الثّانوية بمدينة وادي سوف بالجنوب الجزائريّ.

خلال الثّمانينيات من القرن الماضي كان بوادي سوف عدد من الأساتذة العرب والأجانب يُدرّسون في الثّانويات، وكان بين هؤلاء أربعة مصريّين، وكنا نعرف، نحن التّلاميذ، أنّ هؤلاء الأساتذة يستلمون نصف رواتبهم بالعملة الجزائريّة والنّصف الآخر بالفرنك الفرنسيّ، وسمعنا أنّ رواتبهم أكثر من رواتب أساتذتنا الجزائريين.

والطّرفة التّي كانت تدور بين التّلاميذ أنّ الأساتذة المصريين عندما ذهبوا لاستلام رواتبهم أوّل مرة، وبعد أن قام موظّف البنك بتسليم راتب أوّلهم قال له مشدوها: هل هذا لنا جميعا أم لي وحدي..؟.

كنّا نتداول هذه القصّة بطرافة فقط ولم نسمع قطّ أحدا من أساتذتنا الجزائريّين يتحدّث عن هذه القضيّة أو يظهر امتعاضه وتذمّره بسبب رواتب الأساتذة الأجانب، فالأمر كان طبيعيّا ومنطقيّا، فلماذا يكابد هؤلاء آلام الغربة إذن..؟.

بعد عدّة أشهر من العمل في القناة تزايد حجم الأخبار المغرضة والتّغطيات المتحيّزة خاصّة ما تعلّق منها بالملفّ العراقي، وصرتُ أشعر مع زملاء آخرين بضيق شديد من العمل، وكان الرّأي السّائد عندي وعند عدد

من الزّملاء أنّ التّعاقد مع صحفيين من مختلف البلدان العربيّة يهدف، كما هو الحال في القنوات العربيّة الإخباريّة النّاجحة، إلى تطوير الأداء وتنويع الخبرات والقدرة على مخاطبة المشاهد العربي من الخليج إلى المحيط، لكنّ حديثا مع زميل جزائري مرّة أثار لديّ مخاوف من أن نكون "محلّ استغلال" فقد رجّح هذا الزّميل أن يكون الحرص على التّنوع في غرفة أخبار القناة لغرض آخر، وهو "ذرّ الرّماد في العيون"، ومن هناك تُمرّر رسائل وتغطيّات وأهداف سياسيّة وربّما طائفيّة معيّنة، خاصّة ونحن نرى أيادي بعض الزّملاء العراقيّين تعمل بكلّ حريّة في غرفة الأخبار وتغطّي أحداث العراق بتحيّز و"طائفيّة" واضحة في بعض الأحيان.

ظلّ كلام زميلي الجزائريّ يرنّ في رأسي إلى أن عزمتُ على السّفر مع أسرتي والعودة إلى الجزائر، وكنتُ متردّدا بين البقاء أو العودة من جديد إلى طهران لمواصلة العمل عددا آخر من الأشهر، لكنّني حسمتُ الأمر بعد فترة وقدّمت استقالتي.

(26) طهران والثّقافة الغربيّة

عندما يُذكر اسم جمهورية إيران الإسلاميّة ربّما يقفز إلى أذهان الكثيرين مباشرة صورة المجتمع الإسلاميّ الذّي تخرج فيه المرأة محجّبة بما يغطّي كامل جسدها ولا يظهر منها سوى الوجه والكفّان، وتكون هذه المرأة، إلى جانب حشمة الحجاب، محتشمة في أخلاقها وتصرّفاتها ومعاملاتها مع الرّجال في الأسواق وأماكن العمل والمواصلات العامّة.

ويبدو أنّ هذا التّصور عن المرأة في جانبه الشّكليّ كان صحيحا خلال السّنوات العشر الأولى التّي أعقبت قيام الثّورة الإسلاميّة وسقوط الحكم الملكيّ في إيران عام 1979، لكنّ الوضع تغيّر كثيرا، وصار ما يراه الزّائر للعاصمة الإيرانية طهران بعد ذلك، خاصّة في بعض أحيائها الرّاقية، شيئا آخر تماما.

في زيارتي الأولى لإيران أواخر ربيع 2004 حرصتُ على التّجول في العاصمة طهران على قدر طاقتي والوقت الذّي توفّر لي، وزرتُ ضريح الإمام الخميني في جنوب المدينة حيث يقع على الطّريق المؤديّة إلى مدينة "قُمْ" المقدّسة عند المسلمين الشّيعة، ومركز العلم والعلماء ومحلّ إقامة "المرجعيّات" الشّيعية الكبرى.

الضّريح تحوّل إلى مزار كبير للطّائفة الشّيعية في كلّ بلاد العالم، وليس مقصورا على الإيرانيين فقط، وقد رأيتُ عربا من دول الخليج العربية

والعراق جاؤوا لزيارة ضريح الإمام الخمينيّ، وكانوا يقبّلون الشّبابيك ويرمون بالأموال في الأماكن المخصصة لذلك، على غرار ما يفعل الزّوار الإيرانيّون تماما.

الجموعُ كانت كثيرة حول المزار لكنّ المفارقة بالنّسبة لي كانت قبل الوصول إلى المكان عندما سألتُ سائق التّاكسي، وكان شابّا في العشرينيات من عمره، إن كان يعرف مكان الضّريح، فقال إنّه في جنوبيّ طهران على بعد ثلاثين كيلومترا من المكان الذي كنا فيه شماليّ طهران، مضيفا أنّه لا يعرف المكان بالتّحديد لأنّه لم يزره من قبل. قلتُ في نفسي إذن هناك جيل جديد في إيران يكبر يوما بعد يوم، ولا علاقة له بكلّ الشّعارات التّي تردّدها حكومة إيران "الإسلامية".

دخلتُ حديقة عامّة وسط طهران، وهناك أدركتُ أن ما يفرض على الشّعوب بالقوّة يزول حالما زالت هذه القوّة أو قلّ الخوف منها على الأقلّ. رأيتُ في الحديقة العشرات من الشّباب والشّابات يجلسون على المقاعد مثنى مثنى، كان الشابّ يحدّث الشّابة دون خوف من أحد، بل شاهدتُ مظاهر كالتّي تحدث في بلدان أخرى اشتهرت بالتفسّخ الأخلاقيّ العلنيّ.

سألتُ السّائق الشّاب متظاهرا بالجهل: هل كلّ هؤلاء أزواج وزوجات..؟ فقال: لا.. بل كلّهم أصدقاء وصديقات من طلاّب الجامعات والثّانويات، وواصل حديثه: كان هذا الأمر ممنوعا قبل عهد الرّئيس الإصلاحيّ محمّد خاتميّ وكان للشّرطة الحقّ في مساءلة أيّ شابّ وشابّة وُجدا معا في هذه الأماكن إن كانا متزوّجين أم لا، ويمكن معاقبة المخالفين من الشّباب والشّابات الذّين يجلسون من غير أن يكونوا محارم أو أزواج.

كان السّائق الشّاب يحدّثني بلهجة تحمل الكثير من السّرور والغبطة، فما تحقّق في عهد الرّئيس محمد خاتميّ من تخفيف للقيود

والمظاهر الدّينية، يعتبر من وجهة نظره ونظر الكثيرين من أمثاله تقدّما ومكاسب حصل عليها سكّان طهران الذّين يتحدّث بعضهم بحنين وشوق إلى (عهد الشاه) حيث كان الباب مفتوحا على مصراعيه لتنهل طهران من العادات والثّقافة الغربيّة.

غادرتُ إيران لأعود إليها بعد عدّة أشهر وأستقرّ فيها لبعض الوقت محرّرا في غرفة أخبار قناة العالم الفضائيّة، وهناك عرفتُ أشياء أكثر وأكثر، فالحجاب الذّي ما زال مفروضا على جميع النّساء بقوةّ القانون تحوّل في مدينة طهران إلى قطعة قماش صغيرة وشفّافة تغطّي أقلّ من نصف الرأس، ومئزر يصل إلى نصف السّاق فقط ليفسح المجال لسروال "جينس" في كثير من الأحيان. وفي شوارع داخلية بعيدة عن مراقبة الشّرطة رأيتُ أكثر من مرة نساءً يمشين دون غطاء للرّأس وبلباس يمثل آخر ما تفتّقت عنه عقول مروّجيّ الموضة الحديثة.

ومقابل مبنى التّلفزيون، الذّي مازال يبثّ شعارات الثّورة الإسلامية، هناك مبنى مكوّن من ثلاثة طوابق يسّمى (الفروشكاه) يرى فيه الزّائرُ عالما مختلفا تماما عمّا تعرضه الفضائيّات الإيرانية، وعمّا يشاهده في شوارع طهران العاديّة.

يضمّ المبنى مجموعة من مطاعم الوجبات السّريعة ومقاهي تحمل أسماء أوروبية، وترى هناك أعدادا كبيرة من الإيرانيين يتدافعون للحصول على ما يريدون من وجبات في عشق غريب لثقافة الأكل والشّرب الغربيّة، وعلى هامش الأكل والشّرب يجد الجميع فرصتهم للتحرّر من القيود الرّسمية، والتصرّف كما لو أنّهم في دولة غربية تماما، فالشّابة تدخّن بشراهة مع صديقها، ولن تجد حرجا في أن تتحدّث وتتصرّف بطريقة مثيرة أمام أعين الآخرين.

وغير بعيد عن هناك فتح عدد من المصريين مطعما للوجبات السّريعة على الطّريقة الأمريكية، ويُشاع أنّهم ينتهجون نفس أسلوب مطاعم "دجاج كنتاكي" الأمريكية المنتشرة في دول الخليج العربية، لكنّهم ولحساسيّة الأمر فضّلوا أن يكون لهم اسم إيرانيّ للتخلّص من المضايقات الحكومية. وهذا المطعم يشهد هو الآخر ازدحاما شديدا، ويقف الإيرانيون في طوابير طويلة للوصول إلى ما يريدون، وإن كان في النّهاية لا يعدو دجاجا محمّرا وبطاطس مقليّة ومشروبات غازيّة.

وسكّان طهران، أو كثير منهم على الأقل، معجبون بأمريكا وثقافتها رغم العداوة الرّسمية بين بلادهم والولايات المتّحدة الأمريكية، ويتحدّث البعض عن أنّ عدد الإيرانيين الذّين يقيمون في الولايات المتحدة يصل إلى قرابة المليوني إيرانيّ، وهذا ما قد يعني أنّه قلّما يوجد بيت في طهران والمدن الإيرانية الأخرى لم يهاجر منه فرد إلى أمريكا.

وهذا الأمر هو الذي اضطرّ الحكومة الإيرانية، حسب ما أخبرني دبلوماسيّ عربيّ في طهران، إلى تخفيض سعر المكالمة الهاتفيّة نحو الولايات المتحدة إلى الحدّ الأدنى، فأغلب الإيرانيين يتّصلون هاتفيا بأمريكا "الشّيطان الأكبر" في أدبيّات النّظام الإيرانيّ.

أكثر سكّان طهران لهم موقف سلبيّ واضح من أصحاب العمائم الذّين يحكمون البلاد باسم الدّين والمذهب، ولا يخفي سائقو سيّارات الأجرة، عندما يطمئنوا إلى أنّ الرّاكب أجنبيّ، نقمتهم على الحكومة والمعمّمين على وجه الخصوص، وحدث معي هذا الأمر مرات عديدة.

ويتكرّر الأمر نفسه في المحلاّت التّجارية، حيث يسخر أصحابها صراحة حتّى من الإمام الخمينيّ مؤّسس وقائد الثّورة؛ فإذا سألتَ عن سعر سلعة ما يقول لك مثلا "يك خميني"، "دو خميني"، أي ورقة واحدة، أو

ورقتان، لأنّ الورقة الواحدة من فئة ألف "تومان" التّي تعادل قرابة دولار أمريكيّ عليها صورة الإمام الخمينيّ.

وحدث مرّة أن كنتُ عائدا من السّوق بصحبة زوجتي، حيث ركبنا سيّارة أجرة، وسألني السّائق عن بلدي وعملي كعادة أكثر سائقي سيارات الأجرة هناك، وعندما اقتربتُ من مكان سكني في منطقة "بُونَك" قطع الطّريق أمامنا رجل يضع على رأسه عمامة سوداء ويرتدي لباس طلاّب العلم أو العلماء، فقال لي السّائق مازحا: لماذا لا تأخذه معك إلى الجزائر..؟ وأردف: عندنا الكثير من هؤلاء في إيران.

ونادرا ما تجد في مدينة طهران رجلا بلباس الدّين الرّسميّ، حيث صاروا يتجنّبون الظّهور به في الأماكن العامّة لازدياد المشاعر المناهضة لهم، حسب رأي زميل إيرانيّ تحدّثت معه في هذا الشّأن.

(27) طهران.. جمال وازدحام

يبلغ سكّان العاصمة الإيرانية طهران اثني عشر مليون شخص، ويرتفع العدد إلى ثلاثة عشر مليونا في النّهار، حسب بعض التّقديرات، بعد أن يدخل المدينةَ العمّالُ والموظّفون وأصحابُ المصالح والزّائرون من المناطق المجاورة وبقيّة الولايات الإيرانيّة.

المدينة جميلة ومتناسقة مع هذا العدد الهائل من البشر، ومع العدد الكبير من السّيارات الذّي يقدره البعض بثلاثة ملايين سيارة، ويصل به المبالغون إلى أربعة ملايين، مما حدا بالبعض إلى تشبيه طهران بغابة من السّيارات.

وجمال وتناسق مدينة طهران هذا أثّرت فيه عدّة عوامل منها أنّ الشّعب الإيرانيّ وريث حضارات قديمة بما عُرف عنها من تفنّن في العمران والحدائق، ومنها أنّ البلد كان لفترة طويلة تحت حكم ملكيّ، والملوك يتفنّنون عادة في حياتهم الشّخصية وطرق بناء قصورهم، ومع الزّمن ينتقل ذلك إلى رعاياهم عن طريق الحاشية، ومن العوامل أيضا جمال الطّبيعة الخلاّب في طهران والمناطق المحيطة بها، حيث المساحات الخضراء الطبيعية دون جهد أو تدخّل من البشر، وحيث الجبال والأنهار والوديان والغابات الكثيفة.

الطّرق السّريعة تشقّ مدينة طهران من كلّ اتّجاه وعددها كبير، ومع ذلك تتعثّر حركة المرور في ساعات الذّروة، فعدد السّيارات متزايد باستمرار في طهران، وتُعدّ إيران من الدّول العشر الأولى المصنّعة للسّيارات في

العالم من حيث العدد، كما أنّ أغلب الإيرانيين يحرصون على امتلاك السّيارات رغم ارتفاع أسعارها، فالمواطن قد يجد بعض العناء في شراء السّيارة مقارنة بدخله السّنويّ، لكنّه لن يجد مشكلة بعد ذلك، فأسعار الوقود عاديّة جدّا، والأمر كذلك بالنّسبة لقطع الغيار وتكاليف الإصلاح والصّيانة.

وتبرز في طهران كما في عواصم ومدن أخرى في دول العالم الثّالث، مشكلة كثرة السّيارات "المفردة" إنّ صحّ التّعبير، فبين كلّ عشر سيّارات تقريبا تجد واحدة تحمل ثلاثة أو أربعة ركّاب، وفي بقيّة السّيارات ترى شخصا واحدا مستقرّا وراء المقود.

والسّياقة عجيبة ومخيفة في طهران حيث السّرعة الشّديدة والتّسابق والتّنافس الخطير بين السّائقين، وتتكرّر أمامك مشاهد غريبة يوميّا، يتفنّن أصحابها على ما يبدو، في مخالفة قوانين المرور، فترى مثلا سيّارة في الوضعية الثّالثة تدور إلى اليمين دون إشارة تنبيه فتضطرّ بقيّة السّيارات إلى التّوقف واستعمال الفرامل بقوّة، وقد يغضب السّائقون من سلوك صاحب هذه السّيارة وقد يواصلون طريقهم دون مجرّد الالتفات لاعتيادهم على مثل هذه المخالفات.

لم أتجرّأ طبعا على السّياقة في طهران رغم أنّني مارستُ السّياقة قبل ذلك في الجزائر وباكستان وأفغانستان وقطر، وعدا زملائنا العراقيّين الذّين يقيمون في إيران إضافة إلى زميل لبنانيّ، لم يتجرّأ أحد من بقيّة الزّملاء على السّياقة، والوحيد الذّي فعل ذلك وكان يقود سيّارة خاصّة في طهران هو الزّميل المذيع عثمان إلطيّف، والسرّ وراء ذلك أنّه ابن جارتنا الجماهيريّة اللّيبية وهي معروفة بفوضى المرور و"جرأة" السّائقين فيها، وذلك وجه شبه بينها وبين الجمهوريّة الإيرانيّة.

الشّعب الإيرانيّ ودود، في الظّاهر على الأقلّ، وكلمات التّرحيب والمجاملة كثيرة جدّا في لغة القوم، وتأخذ وقتا ليس باليسير من أحاديث النّاس، كما تأخذ وقتا من مدّة المحادثات الهاتفيّة، فالشّخص إذا تحدّث مع صديق له لا بدّ أن يدخل معه في سلسلة مجاملات على الهاتف قد تضاعف زمن المكالمة، وقد تكون هذه المكالمة في الأصل لاعتذار عن موعد مقرّر، أو لإبلاغ خبر على وجه السّرعة.

وإذا اشتريتَ شيئا من أيّ دكّان فإنّ صاحبه، وبعد أن يخبرك عن الحساب، سيقول لك قطعا قبل الدّفع: (قابِل نَدَارَد) أي: لا لزوم لذلك، وقد يصير المبلغ في يد صاحب الدّكان ثمّ ينسى أن يجاملك فيستدرك، وقد حدث ذلك معي أكثر من مرة في الدكان الأقرب إلى مسكني، حيث يستلم المبلغ من يدي وهو مشغول بحديث مع شخص آخر، ثمّ يتذكّر أنّه لم يجاملني، فيقول والمبلغ في يده (قَابِلْ نَدَارَد)، والأمر نفسه يحدث مع سائق التّاكسي وما شابه ذلك.

وعلى الطّرف المقابل أن يكون على علم بأصول "لعبة المجاملة" هذه طبعا، فإذا سمع (قابل ندارك) لا يضع نقوده في جيبه ويخرج، بل عليه أن يبتسم ويصرّ على البقّال أن يمسك المبلغ، فيمكسه الرّجل، ويضعه في صندوقه، ويودّع الزّبون بابتسامة قد لا تكون "صفراء" مصطنعة، لكنّها صارت على الأقلّ روتينا يوميا و"مهارة" من مهارات التّجارة والتّعامل مع الآخرين.

ومن المجاملات المشهورة عند الإيرانيين كلمة "تْشَشَم" أي عَيْنِي، وتنوب في الكلام عن كلمة نعم، لكنّها تؤكّد على الاستجابة التّامة وغاية الحرص على الأمر المطلوب، وأيضا عبارة "قُربان شُما" ومعناها جُعلت فداك، وتستعمل جوابا لطلب أو مناداة، وأيضا عبارة "دَسْتِ شُما دَرْد نَكُنَد"

وهي أقرب إلى الدّعاء وترجمتها الحرفية (لن تتألم يداك)، ويقابلها في العربية عبارة "سلمت يداك".

مظاهر كثيرة في العاصمة طهران تنبّئ عن حسن استغلال للأرض والمكان فمشكلة مواقف السّيارات أمام العمارات مثلا غير مطروحة، والعمارة السّكنية التّي تصل إلى عشرين طابقا يُصمم معها موقف تحت الأرض يتّسع لعدد من السّيارات يساوي عدد الشّقق السّكنيّة.

ومع أنّ الأمن مستتبّ تماما، فإنّ أبواب العمارات صُمّمت بشكل تظلّ معه مغلقة طوال الوقت، وكلّ ساكن له نسخة عن مفتاح الباب الخارجيّ للعمارة، وفضلا عن ذلك إذا أراد فتح الباب الخارجيّ وهو في الطّابق العاشر مثلا فلن يكلّفه ذلك سوى الضّغط على زرّ من داخل شُقّته لينفتح الباب للقادم بعد أن يكون قد تحادث معه عبر هاتف داخليّ مثبّت على الباب، وفي أحيان كثيرة تكون مع هذا الهاتف كاميرا مراقبة تُظهر الزّائر بوضوح للتأكّد من شخصيته.

سيّارات الأجرة في طهران تقدّم خدمات سخيّة جدا، فلا يكاد شارع كبير أو حيّ سكنيّ أو سوق أو مجمّع إدارات حكوميّة يخلو من مكتب لسيّارات الأجرة، وما عليك إلا أن تتّصل وتقدّم عنوانك المفصّل ليدقّ سائق التّاكسي عليك الباب في الوقت الذّي تريده.

وإذا أردت تسهيل المسألة أكثر، فاشترك مع مكتب سيّارات الأجرة القريب من بيتك، والاشتراك مجانيّ طبعا، حيث يصبح لك رقم مسجّل في الكمبيوتر، أو في دفتر على الأقلّ. وعندما تتّصل بعد ذلك بمكتبك المفضّل لسيّارات الأجرة، لن تكون مضطرا للإخبار عن عنوانك من جديد، فما عليك إلا أن تذكر الوجهة التّي تريدها، ورقمك الخاصّ، وبعد دقائق سيدقّ سائق السّيارة جرس بيتك، قائلا بكلمات لا تخلو من المجاملة: "آغا بيفَرْما تاكسي آمَد"، أي تفضّل أيّها السّيّد لقد حضرت سيّارة الأجرة.

والعناوين في إيران دقيقة جدا ويمكن لسائق التّاكسي أن يوصلك إلى أيّ نقطة في طهران إذا أعطيته عنوانا محدّدا؛ فالمدينة مقسّمة إلى شوارع كبيرة وطويلة جدا تسمّى "خِيَابان"، منها مثلا خيابان شريعتيّ وخيابان جمهوريت وخيابان إمام خمينيّ.. وتتفرّع عن هذه الشّوارع الكبيرة شوارع أصغر ثمّ شوارع فرعيّة، وكلّها مرقّمة بشكل جيّد وبلوحات واضحة تماما، وهذا الأمر ينطبق أيضا على جميع المدن الإيرانيّة وحتّى القرى البعيدة النائيّة.

ملحق الصّور

إسلام آباد: أمام مسجد الملك فيصل

إسلام آباد: في مكتب الجزيرة

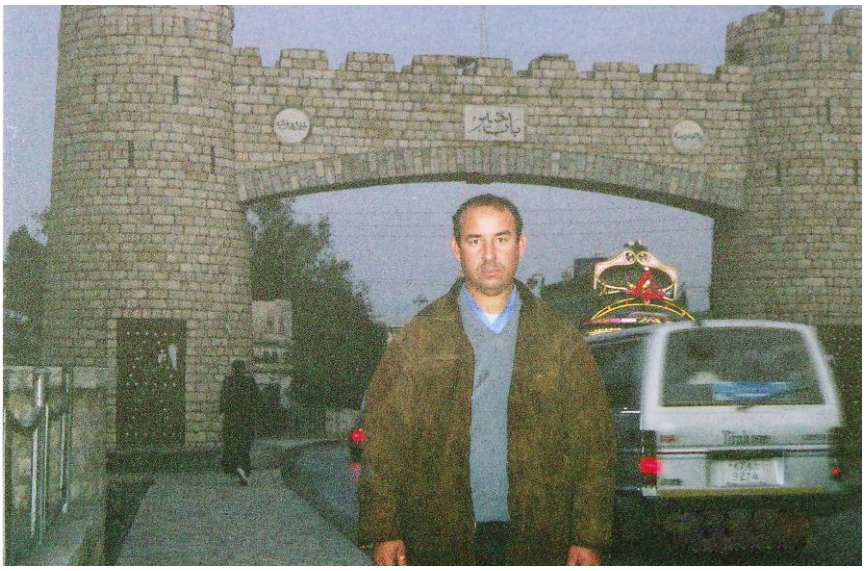

باكستان: قرب بوّابة ممرّ خيبر التّاريخيّ

مباشر مع الزّميل جمال ريّان

برنامج لقاء اليوم مع السّيد الإبراهيميّ

كابل : داخل مكتب الجزيرة

جلال آباد : مع زعماء " قوم عرب "

كابل : العيد الوطنيّ لدولة الإمارات

كابل: مع السّفير اللّيبيّ

مزار شريف : أمام ضريح الإمام علي

في الطّريق إلى ولاية خوست

في مطار مدينة هرات

مع الجنرال الأمريكيّ جون أبي زيد

الدّوحة: مبنى قناة الجزيرة

الدّوحة : مركز التّدريب الإعلاميّ / الجزيرة

الدّوحة : مع عدد من الزّملاء بمركز التّدريب الإعلاميّ

طهران: أمام ضريح الإمام الخمينيّ

طهران: مع الزّملاء بمكتب الجزيرة

طهران: مع عدد من الزّملاء بقناة العالم

طهران: مع الزّميلين ناصر الوائليّ و بلقاسم جعفريّة

الفهرس

الموضوع	الصّفحة
تقديم بقلم الأستاذ محمّد الهادي الحسنيّ.....	01
إهداء.....	05
مقدّمة.....	06
معلومات أساسيّة.....	08
الدّول الثلاث: عادات وعبادات.....	11
الدِّين والمعاملة	15
اللغة العربية في باكستان.....	20
إسلام آباد مدينة الهدوء والخضرة.....	24
الطّريق إلى كابل.....	29
قاعدة (بجرام) الأمريكية.....	34
أوّل صحفيّة جزائرية في كابل.....	39
الكاميرات.. عقدة جنود شاه مسعود.....	44
مرقد آخر للإمام عليّ	49
العرب الجدد في أفغانستان.....	54
الجزيرة وأفغانستان.....	59
بادشاه خان زدران.....	64

في ولاية هرات..... 69
كابل ما بعد طالبان..... 74
"الباشائيّ"... أحفاد الإغريق..... 79
قندهار.. خير وخيرات..... 84
شاي الطّوارق في قندهار..... 89
رسالة من كارزي إلى الملاّ عمر..... 94
الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة..... 98
"كونار".. النّهر الذّي قتل الرّئيس..... 103
الجنرال الذّي تنكّر لأصله..... 108
سبق صحفيّ بجثث المساكين..... 113
ضريبة السّبق الصّحفيّ..... 118
الإبراهيميّ الذّي أحبّه الأفغان..... 123
قناة العالم الإيرانيّة..... 128
طهران والثّقافة الغربيّة..... 133
طهران جمال وازدحام..... 138
ملحق الصّور 143
الفهرس..... 154

هذا الكتاب

كلمة "العجم" في أدبياتنا العربية تطلق على كل من ليس عربيا، والمقصود بها في هذا الكتاب ثلاث دول يفرقنا عنها المكان واللسان، ويجمعنا بها الإسلام والإيمان، وهذه الدول هي باكستان وأفغانستان وإيران، وقد قضى الأستاذ الطاهر الأدغم في هذه الدول فترة من حياته، حيث عمل مراسلا لبعض القنوات الفضائية.

إن مهمة المراسل مهمة ممتعة لما تمنحه لصاحبها من أسفار يتعرف من خلالها على كثير من الأمصار، ولما تتيحه له من اتصال مباشر بمختلف الشعوب، ولقاءات مع قياداتها السياسية، ونخبها الثقافية، ولكل وجهة هو موليها، وأفكار يؤمن بها، ويدعو إليها، ويجادل عنها باللسان أو بالسنان، وكل ذلك يزيد المراسل خبرة وتجربة تثريان شخصيته، وتوسعان أفقه. وهي مهمة خطرة، لأنها قد توقع صاحبها في مآزق، وتضعه في محارج، وقد تؤدي به إلى التهلكة، خاصة في المناطق الساخنة التي تعرف توترات، وتعاني داء الخلافات، وتعيش مشكلات، ويكون فيها صوت الرصاص والانفجارات هو الأطغى. وكم من مراسل ذهب ضحية تلك النزاعات.

وإضافة إلى ما يتناوله هذا الكتاب من حديث عن سياسيين وعسكريين؛ فهو يتناول وصفا للمناطق التي زارها الكاتب، وما لقيه في زياراته من لُغُوب ونصب، ووصفا لعادات سكان تلك المناطق وتقاليدهم الحسناء والشيناء.

الأستاذ محمد الهادي الحسني

دار الخلدونية

دار الخلدونية

05 شارع مسعودي محمد - القبة القديمة - الجزائر

ISBN : 978 - 9961 - 52 - 197 - 7